عزة بندق

"المرآة"

كيان كورب

(دار ليلى للنشر والتوزيع)

الكتاب:

المرآة

المؤلف:

عزة بندق

الغلاف:

محمد محمود

التنفيذ الفني:

حسام سليمان

التدقيق اللغوى:

دار ليلى

★ ★ ★

إدارة التوزيع:

أ. عبد الله شلبي

الإشراف العام:

أ. محمد سامي

★ ★ ★

رقم الإيداع :

© جميع الحقوق محفوظة، وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع - دون موافقة كتابية - يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

الترقيم الدولي :

المهندسين-23 شارع السودان—تقاطع مصدق-الدور الرابع—مكتب 11

هاتف: 33370042 (02) (002) - 3885295 (012) (002)

البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

عزة بندق

"المرآة"

كيان كورب
دار ليلى للنشر والتوزيع

مقدمة الناشر

كانت دار ليلى (كيان كورب) منذ ما يزيد عن 4 سنوات، قد أطلقت مشروعها (النشر للجميع.. ولمن يستحق) والذي نال استحسان الكثير من المواهب وقتها، والتي أصبح البعض منها كتابًا محترفين بعد ذلك، أو توجهوا لمشروعات ثقافية متنوعة، لمعوا من خلالها..

ومع ازدياد كم الأعمال التي يبدعها الشباب – خاصة بعد ثورة يناير العظيمة– وفي ظل الظروف الحالية التي تمر بها مصر، أصبح سوق النشر والتوزيع في حالة ضعيفة، خاصة مع استمرار ازدياد أسعار الخامات، وإحجام كثير من دور النشر على ممارسة نشاطها بتوسع، وضعف القدرة الشرائية للقارئ المصري، كذلك صارت عملية النشر محفوفة بالمخاطر،

التي تخيف طرفيها – الناشر والقارئ – على حد سواء.. وكانت الدار نفسها من الدور التي تأثرت – وبشدة– اقتصاديا، ومع اضطرارها لإغلاق باب تقديم الأعمال، فكرنا في حل بديل، هو النشر لمن يستحق.. وتطورت الفكرة كثيرًا، إيمانًا من دار ليلى (كيان كورب) بأهمية الحركة الثقافية، وحرصًا منها على استمرارها في دورها، وإيمانًا منها – كما عهدتموها– بالشباب الموهوب..

لذا فقد قررت الدار إحياء مشروعها"النشر لمن يستحق"لفترة محدودة هذا العام، وعلى مراحل، وبشكل استثنائي، لعل ذلك يحرك المياه الراكدة.. آملين أن يحقق ذلك مجموعة نتائجها، على رأسها:

– توفير الفرصة للراغبين في النشر أن ينشروا أعمالهم، وأيضًا عبر دار نشر لها اسمها ولله الحمد، مع كبار الكتاب.

– تحقيق الأمان الاقتصادي للكاتب، حيث يضمن عودة ما دفعه بعد عام واحد، مع هامش ربح خفيف، إضافة للغرض

الأسمى، وهو أن يرى أعماله منشورة.

– تحقيق المصداقية والوضوح بين الناشر والكاتب، عبر شكل وبنود العقد الذي يعتمد على حماية الملكية الفكرية، كما هي عادة عقود دار ليلى.

– توفير عناوين جديدة ذات قيمة للسوق المصري، الأمر الذي يخدم العملية الثقافية.

ندعو المولى عز وجل أن يكلل مجهوداتنا بالنجاح، وأن ينال مشروعنا رضاكم، وكلنا ثقة بأن كثير من الأسماء التي تنشر من خلال هذا المشروع، ستصبح – مثل سابقيها– بإذن الله من اللامعين في مجالات ثقافية عدة.

الناشر

الإهداء

أحمد الله أن وفقني لكتابة أول إهداء لأول كتاب أفخر أن يكون قد وصل لديكم بهذا الشكل النهائي.

أمي، أبي، وإخوتي هذا الكتاب ما كان ليكون دونكم أدامكم الله لي.

أ / أحمد الوكيل ود./ مصطفي عمر الفارق، كانا معي خطوة بخطوة ولم يبخلا علي بأي نصيحة، شكراً جزيلاً.

أشكر أ / محمد سامي على إيفائه وعده بقراءة عمل لي وإبداء رأيه بالرغم من انشغاله الدائم.

أشكر أ / طه، أ / حنان، د. سوزان، د. حاتم على وجودهم وتأثيرهم بحياتي، أول مكان رأت فيه كلماتي النور

روايات 2. أشكر كل من وثق بي وشجعني أن أواصل الطريق. أتمنى أن ينال العمل رضا كل من يقرأه، لكم مني جميعاً كلمة شكر.

تحياتي

للتواصل:

Azza.Bondok@hotmail.com

عزة بندق

النشر لمن يستحق

"المرآة"

(1) عودة

"تحتل الأساطير جزءاً هاماً من حياة الناس في كل بقاع العالم، فهناك دوماً ما لا يفهمونه وعندما يحدث ذلك ويعجزون عن إيجاد تفسيرا منطقياً يسارعون بدفعه إلى الجانب الخاص بالأساطير والغير المألوف. والغريب في الأمر والمثير للحيرة بل وللحنق في أحيانٍ كثيرة هو أن هذا هو المتبع إلى الآن، فبالرغم من التقدم العلمي والتكنولوجي والرقي الحضاري الذي وصلت إليه الشعوب المعاصرة لا زال الحديث عن الأساطير والإيمان بالقصص الغريبة يحتل جزءاً كبيراً في عقول وأذهان الناس." حتى هي لم تنج من الأساطير

توقفت عن الكتابة في هذه اللحظة وأخذت نفساً عميقاً لتريح جسدها المكدود الذي لم تسمح له بنيل قسط وافر من

النوم بل بدأت بالشروع في عملها على الفور، ولكن هيهات لقد تمرد جسدها وأعلن عن تعبه وإجهاده وبدا ذلك واضحاً في محاولاتها التي باءت بالفشل لإبقاء عينيها مفتوحتين.

ألقت نظرة حانقة على الأوراق التي تراصت أمامها وقامت متجهة نحو النافذة لتتثاءب بقوة محدثة نفسها

– حسناً يا (نرجس) العالم لن ينتهي اليوم فلترتاحي أولاً ولتكملي ما بدأتيه غداً.

قالتها والتفتت مرة أخرى نحو الحاسوب لتلقي نظرة على شاشته التي تراصت عليها عشرات العناوين لمئات الأساطير والقصص المختلفة التي يتداولها العامة ومن ثم تمتمت بضيق

– لم كان عليكِ أن تختاري الكتابة عن هذا الموضوع بالذات؟! لقد نصحكِ محمود بالعدول عن الفكرة واختيار موضوع آخر

عـادت بنظرهـا إلى مـا وراء النافـذة وارتاحـت كـثيراً للمشهد الجميل أمامها، الحقول الخضراء علـى امتـداد البـصر والفلاحون يزرعون الأرض بهمة وحماسة غير آبهـين للـشمس الحارقة ويقومون بتحويل وضخ الماء من ترعة قريبة على حدود الأراضي والـتي تكمـل مـن روعـة المـشهد المـصحوب بزقزقـات العصافير.

* * *

تفيد الأسطورة بأنه كان هناك شاباً وسيماً للغاية يـدعى نرجس، يذهب يومياً إلى البحيرة ليرى انعكاس وجهه ويعلـن عـن جمالـه الـشديد إلى أن قتلتـه جنيـة الـبحيرة ومـن يومهـا سكنت روحه البحيرة ومن هنا جاء مسمى النرجسية.

– الريف المصري من أجمل الأمـاكن الـتي يمكـن للمـرء زيارتها، هذا ما أؤمن به دوماً فالطبيعة في نظري أفضل بكـثير من المدينة وصخبها

استمرت في متابعة المشهد الجميل وشـعرت بـا لحـنين

إليه وتذكرت أنه طلب منها محادثته ريثما تصل، قطع أفكارها رنين هاتفها المحمول الذي ركضت نحوه لترى من المتصل وسرعان ما أطلقت ضحكة قصيرة والتقطته لتجيب قائلة

– ليتني تذكرت عشرين قرشاً.

جاوبها صوت (سامي) الساخط

– هكذا! حسناً سأغلق الخط ولتهنئي وحدكِ بالعشرين قرشاً.

قالت بسرعة دون أن تلتفت لرنة الغضب في صوته

– أتعدني بإرسالها إلي حاسوبي المحمول إذن؟

جاوبها الصمت هذه المرة فابتسمت بمكر وأردفت قائلة

– أتراهنني مقابل عشرين قرشاً بأنك تبتسم سراً الآن؟

سمعت ضحكاته فضحكت بمرح وانتظرت حتى قال لها بعتاب

– لمَ لم تحادثيني فور وصولكِ كما طلبت منكِ؟

ذهبت عنها ابتسامتها وأخذت تجول بنظرها وكأنما تهرب من نظراته التي تخترق الهاتف حين وقع بصرها على إحدى النساء التي تعمل في زراعة الأرض ولكن ما جذبها إليها أنها كانت ساكنة لا تتحرك مثلما يفعل البقية فقط جلست غير آبهة بالشمس ولا بآشعتها الحارقة، أفاقت على صوت (سامي) فأبعدت ناظرها عن السيدة لتجيبه بتلعثم

– لقد لقد وجدت المنزل مليئاً بالغبار فأخذت أرتب وأزيح الغبار وعقدت حاجبيها عندما عادت ببصرها إلى نفس البقعة التي كانت تحتلها السيدة ولم تجدها فأخرجت رأسها قليلاً من النافذة وشاهدت مجموعة من النسوة يتحركن بعيداً ويتبعهن الرجال معلنين عن انتهاء العمل لهذا اليوم، أردفت مكملة:

– وأنفض الغبار عن الـ..

بترت عبارتها عندما وقع بصرها على الأتربة التي يمتلئ المنزل بها ونكست رأسها لرؤية أوراق الدراسة التي

بدأتها:

– لقد انشغلت و.. نسيت

جاوبها الصمت وأحست بضيقه فنادتـه بـألم إلا أنـه لم يجبها فهمت بالاعتذار إليه إلا أنه سبقها بالحديث قائلاً

لم يكن عليكِ الذهاب والعودة إلى منزلكِ القديم وحـدكِ، أعلم سبب إصراركِ على ترك كل شيء وقاطعته برجاء قائلة

– (سامي) لقد سبق وأن تناقشنا في هذا الأمر وأخبرتـك بأنني أحتاج العودة إلى منزلنـا الريفـي، أشـعر بـأني سأحـصل على كل الأجوبة التي أريدها هنا.

تنهدت بقوة مكملة:

– هذا ما كان علي فعله منذ زمن.

أكملت محاولة التظاهر بالمرح:

– هذا سيساعدني على إنهاء العمل وكتابة المقـال الـذي أقوم به، هل تـدرك كميـة الأسـاطير الـتي يتـداولها النـاس في

الريف؟

وأضافت بسرعة كي تمنعه من الاستطراد

– إنها مجرد ثلاثة أيام لا أكثر يا سامي وبعدها..

قاطعها هو بسرعة هذه المرة قائلاً بحزم:

– وبعدها ستعودين لنتزوج ولن أقبل منك تأجيلاً بعد الآن.

ابتسمت بخجل حينما استطرد هو بحنان:

– فأنا لم تعد لدي قوة على الانتظار بعد الآن.

لم يسمح لها بإنهاء المكالمة إلا بعد أن وعدته بأنها لن تتأخر عن الثلاثة أيام التي سبق واتفقا عليها، وبالموافقة على إنهاء مراسم الزواج الذي تؤجله منذ زمن. يا الهي كم تحبه فهو كل ما لديها الآن. شمرت عن ساعديها وشرعت في ترتيب المنزل وإزالة الأتربة التي تراكمت به لما يزيد على العشرين عاماً ولكنها لم تدخل إلى أي من غرفه، إنها حتى لم تفتح

غرفتها واكتفت بالنوم على الأريكة التي تقع تحت النافذة كـي تنعم بالهواء البارد ونامت تلك الليلة وعلـى شـفتيها ابتـسامة حالمة لتبدأ رحلة البحث غداً، أو ربما قبل الغد بكثير!

(2) ذكريات

كان يوماً مشرقا من أيام الصيف الذي لم تكن فيه الشمس حارقة كعادتها وإنما كانت دافئة وتبعث على الراحة وتعطي إحساساً رائعاً بالنشاط والرغبة في الركض واللعب، وهذا ما لم تتردد في فعله الطفلة ذات الخمسة أعوام والتي أخذت تركض وهي تطلق ضحكاتها الطفولية المرحة، كانت تجري لتختبئ من شخص ما وأخذت تنادي قائلة:

– هيا فلتمسكي بي.

أخذت تركض وتركض حتى دخلت وسط حقول الذرة التي استقرت بين كومة من عيدانها والتي أخفت جسدها الضئيل وجلست أرضاً في سكون محاولة منع ضحكاتها كي لا ترشد أحداً إلى مخبئها ولما طال الوقت رفعت رأسها بحذر

وانطلقت منها صرخة عالية سرعان ما اختلطت بضحكاتها وهي ترتمي بحضن امها التي ضمتها إليها بحنان لتطبع على وجنتها قبلة حانية تنافس في دفئها حرارة الشمس نفسها ومن ثم قالت بهدوء وهي تزيحها برفق:

– هيا الآن فلتدعي املكِ لعملها ولتكملي اللعب مع الباقين.

قطبت الصغيرة جبينها معلنة عن رغبتها في البقاء واستكمال اللعب مع امها التي قالت لها بتشجيع:

– حسناً سأنهي عملي وأعاود اللعب معكِ صغيرتي، هيا الآن فلتذهبي إنهم ينادون عليكِ.

سرعان ما ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتي الصغيرة وتركت امها تكمل عملها المرهق مع بقية النسوة التي يساعدن أزواجهن في الزراعة، وأيضاً سرعان ما عادت صرخات الأطفال المرحة في الظهور معلنة عن صفاء الجو، وفجأة اخترقت المكان صرخة ملتاعة لم تأت من ناحية الأطفال ولم تدل على المرح

بأي حال وإنما دلت على الرعب وظهرت معها رائحة مألوفة.. للموت.

* * *

"ما الخطوة الأولى التي سيعلنها عقلك إذا ما انقطعت عنك الكهرباء الآن وسمعت جلبة حولك؟ أستكون وجود الأشباح الشريرة التي قطعت عنك النور وتركتك في الظلمة ممهدة لقتلك شر قتلة؟ أم سيكون الحل الذي يذهب إليه عقلك هو وقوع شيئ ما مسبباً هذا الصوت؟

ما أريد قوله والتأكيد عليه أن العقل هو المفتاح للتخلص من تأثير لعنة الأساطير. لقد خلقنا لنفكر ونعقل ولو لم يكن لعقولنا وتفكيرنا فائدة لما واصلنا تقدمنا العلمي ولما وصلنا إلى ما وصلنا إليه من رقي، فعلى سبيل المثال لو أننا قمنا بإيعاز كل عملية نصب أو سرقة وكل جريمة قتل لانتقام الأشباح أو هجوم مصاصي الدماء لنجى كل القتلة والمحتالين. لو لم يملك البعض الشجاعة الكافية للتحرر من لعنة الأساطير لَما تواجد

المحققون في الجرائم الغريبة والمحيرة ولَما تواجد رجال العلم والمنطق ولتحولنا كلنا إلى مجموعة من المغيبين."

– تباً لهذا الجو الخانق

قالتها ومسحت العرق الذي امتد ليغمر جسدها كله إلا أنها لم تحرك ساكناً من أمام حاسوبها المحمول بل وجدت أصابعها تمتد لتفتح صفحة إلكترونية أخرى وتطبع بها بضع كلمات ظهرت إثرها صفحة تحوي بعض العناوين والتي احتوت بعضها على صورة أو اثنين لاب وابنته الصغيرة ذات الثماني سنوات والتي بدا عليها الذعر الشديد حتى أنها التصقت بوالدها الذي ارتسم الحزن الشديد على ملامحه والمختلط أيضاً بالحيرة والجزع. هزت رأسها بعنف وأغلقت الصفحة لتغلق عينيها وتمسك هاتفها تضرب أزراره بسرعة لتنتظر الرد من الجانب الآخر:

– مرحباً عزيزتي كيف حالكِ؟

أخذت نفساً عميقاً معلنة ارتياحها لسماع صوته الذي

عاود السؤال:

– مرحباً (نرجس) هل تسمعينني؟

أومأت برأسها وكأنما يراها وسرعان ما أجابتـه بـصوت خافت:

– بلى أنا هنا.

كان صوتها كفيلاً بإثارة قلقه وهذا ما حدث بالفعل فقـد قال بقلق:

– ماذا هناك يا (نرجس)؟ ما بكِ؟

قالت بلهجة من يوشك على البكاء

– أنا هنا.

قال وقد تزايد قلقه:

– (نرجس) أرجوكِ أخبريني ما الذي حدث؟!

جاهدت لتضفي الهدوء على صوتها وأردفت قائلة:

– ما حدث أنني اشتقت إليك، هذا ما حدث.

أتاها صوته وقد خفت حدة القلق منه:

– أهذا كل ما في الأمر؟

قالت وهي تعاود طباعة شيئ ما:

– كلا هناك أمرٌ آخر.

قال وقد عاوده قلقه:

– حسناً فلتخبريني ما هو.

أغلقت عينيها وقالت بسخرية:

– أتصل لأطالبك بالعشرين قرشًا.

أطلق ضحكة خافتة وأجابها قائلاً:

– يا للكِ من مخادعة، لقد أثرتِ رعبي.

استمعت إليه دون أن تقاطعه فقط اكتفت بأن فتحت عينيها لتطالع الصورة من جديد وتركت دموعها تسيل على

وجنتيها بصمت في حين قال هو:

– لم لا تتركين الأمر يا (نرجس)؟ لقد مضى زمناً طويلا لم لا تعطين نفسكِ فرصة للراحة عزيزتي؟ لمَ لا تعودين وتتركين الأمر برمته خلف ظهرك؟ هل آتي لآخذكِ؟

أزاحت الصورة جانباً لتجيب بسرعة قائلة:

– كلا يا (سامي) لا تفعلها، سأنهي ما بدأته أولاً.

أجابها بغضب مكتوم:

– لست أدري لم تعاودين فتح موضوع قد انتهى منذ فترة طويلة ورمت بهدوئها الزائف جانباً لتجيب عليه بحدة قائلة:

– الموضوع لم ينته بعد فأنا لم ولن أنسى، ألا تعلم أني أمر به كل ليلة؟ فكيف تقول بأنه انتهى!

أجابها قائلاً:

– أنتِ من تقوم بتعذيب نفسها فعقلكِ لا يريد ترك

الأمر جانباً، عنادكِ يأبى ألا يعترف بالتفسير المنطقي و

قاطعته بحدة عصبية:

– منطقي! أتسمي هذا تفسيراً منطقياً؟! حسناً فأنت لم تكن هناك أما أنا فقد شهدت الأمر كله و..

قاطعها بدوره قائلاً:

– شهدتيه بعقل طفلة لم تكن تعي ما يحدث حولها ولو تكرر الأمر الآن لوجدتيه تفسيراً منطقياً للغاية.

لم يشعر بفداحة ما قاله إلا بعد أن أتاه صوت نرجس قائلاً:

– علي استكمال عملي الآن.

قال بسرعة:

– نرجس أنا لم أقصد، فقط دعيني آتي لأخذكِ و..

قاطعته بهدوء قائلة:

– وداعاً.

قالتها وسارعت بإنهاء المكالمة وبإغلاق الهاتف كله وقامت برميه على الطاولة أمامها وعادت إلى شاشة الحاسوب تستعرض صورتها وهي ملتصقة بابيها بخوف وأخذت تقرأ الكلمات المتراصة أمامها ووجدت نفسها تهتف بغضب:

– يقول بأنه تفسير منطقي! إنه الحمق ذاته.

قالتها وانفجرت بالبكاء وأراحت رأسها على الطاولة أمامها تطالع الصورة دون أن تفعل شيئاً سوى الاستمرار في النظر إليها علها تفلح في الوصول لتفسير يريح عقلها المكدود.

* * *

أخذت تجري وتركض دون أن تدري ما الذي عليها فعله، فقط استمرت في التقدم نحو الوجهة التي تأتي منها الصرخات إلى أن وجدت قدمها تقودها إلى الترعة التي تستخدم لري الأراضي لتجد نفسها أول الواصلين، وهناك رأت هي

مشهداً زلزل كيانها كله إلى أقصى حد، مشهداً لم تستطع نسيانه إلى الآن بالرغم من مرور أكثر من عشرين عاماً إلا أنه ظل يراودها في أحلامها ويثير فزعها.

مرأى أمها وهي تخبط المياه الراكدة بحثاً عن ابنتها الصغيرة في حين أخذت نرجس تبكي وهي واقفة مكانها غير قادرة على الحركة ولا النطق فقط ركزت عينيها المذعورتين وأخذت تتابع امها التي أخذت تعلوا وتهبط في المياه دون جدوى، همت نرجس بإلقاء نفسها في المياة وذلك أملاً منها في إنقاذ امها التي أخذ وجهها يتحول إلى اللون الأزرق من الاختناق إلا أنها فوجئت بيد أبيها تتلقفها وتشدها بعيداً فأخذت هي تصرخ وتنتفض وتستغيثه أن ينقذ امها مشيرة إلى المياه واتبع أبوها اصبعها الصغير والذي استقر على الترعة ذات المياة الراكدة والخالية من الحركة والحياة!

* * *

اتجهت بتركيزها نحو الحاسوب لتكتب وتنشغل

بعيداً عن الكابوس المزعج الذي يطاردها أخذت تكتب دون أن يصدر عنها صوت سوى صوت النقرات الصادرة عن الكتابة ومع كل كلمة تكتبها كانت تعود بذاكرتها إلى هناك...

– ابنتك تحتاج إلى علاج نفسي، فقد مرت بأزمة شديدة ولن تستطيع مساعدتها وحدك، كما أنصحك أيضاً بترك المنزل والبلدة كلها.

كانت هذه الكلمات هي أول ما سمعته (نرجس) حين فتحت عينيها لتجد أبيها واقفاً موليها ظهره وينصت إلى صديقه الذي أكمل قائلاً:

– (نرجس) هي من كانت موجودة في مكان الحادث وهي من أشارت إلى غرق أمها وأختها وهي من كانت السبب في أن أتت الشرطة للتحقيق في الأمر. أنت تعلم أنها صغيرة وأنها من الممكن أن تكون قد اختلقت الأمر كله و..

قاطعه الأب في مرارة:

– لكنك كنت معنا في الحقل وسمعت بنفسك الصرخات التي كانت تطلقها أمها، كما أننا كنا بالظهيرة و..

قال صديقه بسرعة:

– يا (كمال) لم يعثر أحد على أي جثث بالرغم من أن البحث قد استمر لثلاثة أيام واختفائها بالظهيرة ووجودك وسطنا تزرع وتقلع كان لصالحك لأنهم ربما اتهموك أنت بقتلها!

قال (كمال) بغضب:

– ماذا تريدني أن أعتقد إذا! أتريدني أن أستمع لما يقوله الناس من أن زوجتي تركت زوجها في الحقل وهربت مع عشيقها!

أكمل وقد اشتد غضبه:

– أم تراني أصدق أن أم الشعور قتلتها وأغرقتها.

ربت صديقه على كتفه برفق وقال بهدوء:

– بـل أنـصت إلى مـا أطلبـه منـك يـا صـديقي ولتعـتني بطفلتك وتأخذها بعيداً عن المكان كله.

اتخذ قـراره بـترك البلـدة والـذهاب إلى المدينـة وهنـاك ترك هـو مهنـة الفلاحـة بـالطبع وعمـل بمـصنع للزيـوت ومـن إيراده وإيراد أرضه التي قـام بتأجيرهـا للمـزارعين عـاش هـو و(نرجس)

أما بالنسبة لنرجس نفسها فقد ازداد الأمر سـوءاً بـدءاً من نوبات الفزع التي كانت تأتيها يومياً واستيقاظها المستمر من نومها لتهرع لحضن والدها وتشكي له أمها التي تحـاول أن تغرقها معها ومع اختها. وفي أحيان أخرى كانت تشكي لـه أن أم الشعور هي من كانت تحـاول إغراقهـا ولـيس أمهـا، وعلـى جانب آخر فقد كرهت المياة أو أي مسطح مائي إلا أن والـدها لم ييأس وأصر على تعليمهـا الـسباحة ورويـداً رويـداً بـدأت هـي بنسيان الأمر والسباحة في المغطس الذي تـرى قاعـه جيـداً، إلا أنها كانت تفاجئ والـدها بـين الحـين والآخـر بكـابوس مفـزع

هاجمها وأطار النوم من عينيها.

هكذا كانت حياتها ما بين الكوابيس والخوف والرعب وما زاد الأمر سوءاً بحق كان عند موت أبيها فقد تركها بمفردها وهي بعد في الجامعة، تركها تواجه الكوابيس وحدها حتى ظهر (سامي) الذي أحبته كما لم تحب أحداً من قبل، أحبته لأنه كان بمثابة أبيها وأمها وأسرتها كلها وبالرغم من حبها الشديد له إلا أنها استمرت في تأجيل الزفاف وتقبل هو هذا وساندها على أن عملا معاً في صحيفة مشهورة وكان دوماً إلى جانبها مؤيداً ومسانداً لها.

* * *

قامت (نرجس) بفرد ظهرها كله وإراحة رقبتها وعنقها، لقد كانت تشعر بالكثير من الإرهاق فقد أخذت تكتب طوال الليل وحتى الفجر.هكذا هي دائماً ما تنسى نفسها عندما تكتب فهي تجد في الكتابة السلوى ، كما أنها تساعدها في التعبير عن مشاعرها التي تعجز عن التعبير عنها. اتجهت

نحو النافذة لتفتحها لتشاهد شروق الشمس، أخذت نفساً عميقاً من الهواء المنعش ووجدت أنها قد ارتاحت كثيراً عن الأمس.

همست لنفسها بابتسامة وهي تحرك جسدها بنشاط:

– يبدوا أن الكتابة لها تأثير كبير عليكِ يا نرجس

وأغلقت عينيها لتذكر عندما اختارت لفترة أن تتوقف عن الحديث وتكتفي فقط بالكتابة، أمسكت هاتفها المحمول وأخذت تضغط أزراره بخفة ومن ثم تركته وعادت لتلقي نظرة أخيرة على ما ظلت تكتبه طوال الليل وابتسمت ابتسامة رضا ومن ثم قررت أن تفتح غرفتها لتنام بتختها الذي لم تلمسه منذ آخر ليلة قضتها في المنزل ونامت هذه الليلة دون كوابيس.

(3) أم الشعور

نامت(نرجس) بعمق في تلك الليلة وكأنما لا يشغلها شئ حتى استيقظت على صوت رنين هاتفها فأبقت عينيها مغمضتين وتناولته لتجيب مبتسمة:

– صباح الخير.

أتاها صوته دافئاً:

– صباح النور، كيف حالكِ اليوم؟

قالت دون أن تهتم لإجابة سؤاله:

– أرى أنك قد تسلمت رسالتي وفعلت ما طلبته منك بإيقاظي في الموعد المحدد ولذلك فأنا مدينة لك.

قال (سامي) بجدية:

– سألتكِ كيف حالكِ اليوم.

قالت بهدوء:

– أنا بخير حال، أنهيت جزءاً كبيراً من الكتابة ولم يتبق سوى القليل و..

قاطعها ليسأل:

– لم لا تعودين اليوم إذن؟!

قالت باستنكار:

– أعود! ولم؟ لم يتبق سوى الـ..

قاطعها مرة أخرى بلهجة جافة قائلاً:

– لم يتبق سوى القليل، لذا من السهل إكماله هنا.

لم تجد ما تقوله فأعاد هو سؤاله بحزم تعرف هي ما وراءه جيداً، إنه قلق عليها ولم يعد باستطاعته مداراة قلقه، والآن ماذا عليها أن تفعل كي تمتص غضبه وتدحض قلقه،

بذلت قصارى جهدها لتقول بهدوء:

– ولم لا أنهيه هنا؟ لم يعد ينقصني سوى النهاية فقط وبالمعدل الذي أكتب به سأفعلها الليلة وأعود غداً.

انتبهت لشئ هام فأضافت بسرعة:

– أتدري أنني لم أخرج من المنزل ولم أزر القرية إلى الآن؟! لذا فقد كنت أفكر أن أخرج لأتنزه قليلاً وأكتب ما تبقى لي وسط الحقول.

لم يجبها فأيقنت أنه يدير الأمر كله برأسه ولما طال صمته قالت بحزن:

– أنا أفتقدك كثيراً فلا تحملني ما لا طاقة لي به ولتعاونني فيما أفعل، أنت تعلم أنني لم أكن لآتي هنا دونك.

فوجئت بدموعها تنساب على خديها بصمت وقالت بحزن:

– (سامي) هل مللت مني؟ هل ترغب بـ..

– لا تبكي.

قالها بحنان فازدادت شهقاتها تعكس ألمها فأكمل هو بحب قائلاً:

– أنتِ تعلمين جيداً أنني لا أحب رؤيتكِ تبكين، فلا تبكي أرجوكِ.

مسحت (نرجس) دموعها وهي تومئ برأسها وكأنما يراها بالفعل في حين أكمل هو قائلاً:

– حسناً الآن فلتنهي ما بدأتيه ولتعودي إلي.

أومأت برأسها مرة أخرى فأتاها صوته ضاحكاً.

– لا تومئ برأسك يا(نرجس) ولتسمعيني صوتكِ.

ضحكت من وسط عبراتها، يا الهي كم تعشقه، إنه يفهمها ويسمعها ويحتويها ويحبها ويراها عبر أسلاك الهاتف أيضاً ماذا قد تتمنى أكثر من هذا:

– سآتيك غداً إن شاء الله.

تنهد بعمق وقال بسعادة:

– ليس مهماً من يأتي المهم أن نجتمع على خير.

ابتسمت وقالت بحنان:

– بلى.

أنهت المكالمة والتفتت للصورة الكبيرة المعلقة قبالتها على الحائط:

– أماه ألم يحن الوقت بعد؟

قالتها وهي تلقي نظرة قلقة على الغرفة المغلقة التي لم تقدر على دخولها إلى الآن.

* * *

اقتربت بأصابع مرتجفة نحو باب الغرفة تحاول فتحها وأخيراً اتخذت قراراً بالمضي قدماً، ألقت نظرة خاطفة

على الغبار الذي عشش في أركان الغرفة التي كانت تحتل يوماً أهم الأشخاص في حياتها، ليست تدري كيف كان يحتوي هذا التخت الصغير أربعتهم دون شكوى. اتجهت نحوه وهي لا تزال محتفظة بابتسامتها على شفتيها، جلست على طرف الفراش بهدوء وتنهدت قائلة:

– كم أفتقدكم.

– انشغلت باللعب مع باقي الأطفال وتركت (وردة) يا أمي، هل لكِ أن تسامحيني يوماً؟

لمحت بعض الأوراق المطوية فاتجهت وفتحت إحداها لتجدها خطابات كتبها والدها لأمها يسألها عن مكانها ويخبرها عن مدى اشتياقه إليها، كانت تعتقد بأنها تعاني ولكن من الواضح أن أباها كان يتعذب ويعاني أكثر منها.

استمرت في تقليب الأوراق حتى استوقفتها ورقة كانت خطاباً موجهاً لأمها يخبرها فيه بشدة اشتياقه لها بعد مرور

سبعة أعوام على رحيلها ويطمئنها على (نرجس) التي بلغت الخامسة عشرة من عمرها وأخيراً يدعوا بأن يجتمعا معاً على خير إن لم يكن في هذه الدنيا فليكن في جنة الآخرة بمشيئة الله.

* * *

كان الجو حاراً للغاية وخلت الشوارع أو كادت من المارة باستثناء الأطفال التي استمرت في اللعب دون الاهتمام بحرارة أو غيرها، ابتسمت وهي تتذكر نفسها طفلة مثلهم تلهوا وتلعب دون أن يشغل بالها شئ، قادتها قدماها نحو حقول الذرة التي انتشرت حول المنزل وشقت طريقها داخلها وكأنما تحفظ طريقها جيداً و

– بسم الله من أنتِ؟!

انطلق الهتاف من امرأة تقترب من الخمسين تحتفظ بجانب كبير من الجمال، إلا أن الدهشة والفزع كان بادياً على ملامحها والذي لم تفهم نرجس له سبباً خصوصاً بعد أن اعتذرت بسرعة قائلة أنها لم تكن تقصد و

– (فريدة)؟!

كان دور(نرجس) هذه المرة لتظهر علامات الدهشة على وجهها لتقترب من المرأة وتسألها قائلة

– هل تعرفين أمي؟!!

لم تجبها المرأة ولكن اكتفت بنقل بصرها إلى زوجها الذي وصل في هذه اللحظة عند سماعه نداء زوجته الملتاع، تهللت أسارير(نرجس) عند رؤية الرجل الذي لم يغير الزمن من شكله في شئ سوى بإضافة بعض الشيب و

– عم (محمد)، ألا تذكرني؟ إنه أنا نرجس.

قطب الرجل حاجبيه في حين اندفعت المرأة نحوها تضمها إليه بحنان افتقدته نرجس كثيراً في الآونة الأخيرة وسمعتها تقول لزوجها بفرح:

– إنها ابنة فريدة يا محمد، لقد عادت.

قالت وهي لا تزال متشبثة بنرجس:

– مرحباً بعودتكِ يا ابنة الغاليين، أنا خالتكِ (فتحية) صديقة أمكِ رحمها الله.

– مرحباً بكِ يا خالة، أعتذر لأنني لم أتذكركِ.

تنحنحت (نرجس) بحرج وأردفت بصوت خافت:

– في الواقع إنها ليست عودة بالمعنى المفهوم فأنا هنا لإنهاء بعض الأعمال فأنا أكتب مقالاً جديداً في الصحيفة التي أعمل بها وسأرجع إلى المدينة غداً و..

قاطعتها خالتها (فتحية) وهي تضرب على صدرها قائلة بعتاب:

– أنتِ هنا ولم تفكري بالقدوم إلى عمكِ محمد، أين تمكثين إذن وكيف تـ...

قالت (نرجس) بخجل:

– كنت أنوي أن آتي لزيارتكما قبل عودتي صدقيني.

تدخل العم (محمد) قائلاً بحنان:

– لا عليكِ يا بنيتي، وبالتوفيق فيما تكتبين أنا متابع جيد لكتاباتكِ كلها.

جذبتها الخالة فتحية من يدها قائلة.

– هيا ستأتين لتناول الغداء معنا.

حاولت (نرجس) التملص من دعوتها إلا أن عم (محمد) أنهى ترددها حينما قال بحزم:

– لا تحاولي التهرب فنحن نفتقدكِ كثيراً بنيتي.

ابتسمت (نرجس) دون أن تجيب واستسلمت لدفء خالتها (فتحية) التي تذكرها بأمها ونجحت في إقناعهما بان يتناولا طعام الغداء بين الحقول كما هما معتادان وتركتها خالتها (فتحية) بعد نقاش طويل كي تذهب وحدها لتجلب طعام الغداء ولم تنس أن تحذرها من البقاء إلى جانب عمها محمد حتى ينهي عمله وألا تتنقل وحدها بين الحقول كي لا تتوه عنهما أو ربما لخوفها من أن تنال منها النداهة!

أخبرت عمها (محمد) بأنها ستمكث هنا تكتب قليلاً ريثما ينهي هو عمله وحتى تعود الخالة فابتسم بحنان وتركها ولكنه لم ينس أيضاً أن يطلب منها عدم الذهاب وحدها إلى الترعة أو البحر وذلك حتماً حتى لا تنال منها جنية البحر!

أسندت ظهرها إلى شجرة قريبة واحتمت بظلها ومن ثم أخرجت حاسوبها المحمول لتبدأ في كتابة الفصل الأخير.. من حياتها.

* * *

"كانت محقة عندما أشارت سابقاً بأن الريف المصري وحده يحتوي الكثير والكثير من الخرافات والأساطير والحكاوي الغريبة التي يتبادلها ويتوارثها الناس دون تفكير أو تفسير. ففي أقل من الخمسة عشر دقيقة تم تحذيرها – وبمنتهى الجدية – من عدوين خطرين قد يذهبان بحياتها إذا ما تعدت حدودها وفكرت في التجول بمفردها وسط الحقول أو

الترع والقنوات المائية. ما يشغل عقلها بالفعل هو ليس عن كيف نشأت هذه الأساطير ولا عن مدى صحتها وإنما ما يشغلها حقاً هو عن استسلام كافة الناس لها دون النظر إلى مؤهل أو مكانة اجتماعية، فكل من الفلاح والعامل، الجاهل وطالب العلم، الفقير والغني يتداولون الأساطير ويؤمنون بها بل ويخافون تأثيرها أيضاً!

و السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو لم كل هذا؟! لم قد يرغب البعض في تقييد أفكارهم وحبسها وراء أسوار من الجهل والعبث؟ من يملك المصلحة في إبقاء الناس في جو الخرافات والشعوذة والأساطير؟ أهي جهة سيادية تفرح عندما يشغل العامة أنفسهم بالخرافات وذلك لإبقائهم بعيداً عن الأمور السياسية الأخرى؟ إذن في الحالة ليس بعيداً أن نشهد أسطورة للنداهة وقيامها بخطف مرشح بالانتخابات، أم أن السبب يرجع لعقول الناس، فالناس هم من تداولوها وتوارثوها ونقلوها لأولادهم الذين بدورهم قاموا بتعليمها

لأطفالهم وهكذا حتى انتشرت الخرافة لتبتلع كل التفكير والعقل والمنطق."

توقفت عن الكتابة لسماعها لخطوات تأتي نحوها فاشرأبت بعنقها إلا أنها لم تر أحداً فقامت بمناداة خالتها فتحية عليها تكون قد عادت بطعام الغداء إلا أنها لم تجد جواباً، أغلقت حاسوبها وقامت تنادي عمها محمد فوجدته منهمكاً في إزاحة بعض الحشائش الضارة كما أنه كان بعيداً عنها فلمن هذه الخطوات إذن؟! قطبت حاجبيها ومن ثم وضعت الحاسوب جانباً وألقت نظرة أخرى على عم محمد تتأكد من أنه لا يراها واتجهت نحو المكان الذي سمعت عنده ومع كل خطوة تخطوها كانت تذكر كيف كانت تركض وسطها وهي بعد طفلة، استمرت في التقدم حتى وجدت نفسها خارج الحقول ووجدت أمامها ترعةً واسعة لابد وأنها ما يستعين به الفلاحين لري أراضيهم، كانت الشمس ملتهبة حقاً في هذا اليوم وكانت ترسل بآشعتها التي تنعكس على سطح المياة التي

أخذت تتلألأ بشكل جميل أخاذ لا تملك أمامه سوى أن تعلن عن عظمة الخالق، تذكرت السبب الذي من أجله أتت هنا فأخذت تنقل بصرها بحثاً عمن يكون سبباً في الخطوات التي سمعتها وتوقفت فجأة عند إمرأة تستند بظهرها عند شجرة صغيرة خالية من الأوراق موجودة عند ضفة الترعة، كانت تجلس دون أن تحرك ساكناً وكأنما لا تؤثر بها الشمس أو وكأنما انفصلت عن كل ما حولها مركزة بصرها على المياة أمامها، اقتربت نرجس بهدوء وهي تحادثها قائلة:

– مرحباً سيدتي.

لم تتلق رداً فاقتربت منها وعندما أذتها أشعة الشمس قامت بوضع يدها على رأسها علها تقيها بعضاً من حرارتها الملتهبة، أعادت (نرجس) جملتها مرة أخرى وأضافت عليها قائلة:

– أعتذر على تطفلي ولكنني سمعت خطواتكِ وأردت التأكد من مصدرها ولهذا تبعتكِ هنا، أخبريني سيدتي هل

تعملين بزراعة الأرض مثل الباقين؟

لم تتلق نرجس جواباً هذه المرة أيضاً فزفرت بضيق محدثة نفسها:

– يا له من سؤال سخيف يا نرجس ماذا تعتقدين أنها فاعلة إذن تستمتع بأخذ سمرة وذلك بعرض نفسها تحت هذه الشمس الحارقة؟!

شهقت نرجس في تلك اللحظة عندما زلت قدمها ووقعت جراء الأرض الطينية المبتلة قليلاً من مياة الترعة أمامها وهتفت ساخطة:

– تباً والآن اتسخت ملابسي أيضًا يا للروعة.

نهضت وهي تنظف ملابسها بغيظ:

– ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟

التفتت بحدة إلى الصوت لتجده صوت عمها (محمد) فقالت وهي لا تزال تقوم بتنظيف ملابسها:

– لا شئ عماه لقد كنت اكتب و..

قاطعها وهو يتقدم منها مقطباً حاجبيه:

– ولمَ اتسخت ثيابكِ هكذا؟ هل حاولت نـزول الترعـة أم ماذا؟!

توقفت (نرجس) ونظرت إليـه بدهـشة عنـدما شـهدت انعقادة حاجبيه وأجابت بدهشة مماثلة:

– ماذا؟! ولم سأحاول نزول الترعة عماه؟!

أردفت وهي تطلق ضحكة خافتة:

– فأنا لا أخطط إلى نيل عدوى البلهارسيا.

أكملت وهي تلتفت وتشير إلى ما وراء ظهرها قائلة:

– فقط كنت أحادث الـ..

كانت تعلم بأن الرجل لم يـصدق حرفـاً واحـداً ممـا قالـت واكتفى بأن صمت تماماً حتى أنه لم يشارك خالتها فتحية الأسئلة

العديدة التي أخذت تلقيها عليها طوال فترة الغداء وعندما لاحظت زوجته صمته أعاز هو ذلك إلى إرهاقه من عمل الحقل وطلب منها أن تعد الشاي مانعاً إياها من إلقاء مزيداً من الأسئلة وعندما ذهبت لإعداده أشار إلى (نرجس) بأن تتبعه فقامت من مقامها وتبعته بصمت حتى أخذ هو نفساً عميقاً واستطرد قائلاً:

– أعلم سبب قدومكِ إلى هنا.

همت بمقاطعته فأشار لها بحزم أن تصمت فاحترمت هي موقفه وأنصتت لما أكمل به قائلاً:

– أخبرتكِ بأنني كنت صديق والدكِ الوحيد وهذا يعني أنني على علم بكل ما كنتما تمران به.

نظر إلى عينيها مردفاً:

– اثنتيكما.

حاولت مقاطعته فأشار لها أن تنتظر حتى ينهي حديثه:

– لقد كبرتِ اليوم ومن حقكِ أن تعرفي الحقيقة لعلكِ ترتاحي يا بنيتي، لقد تم العثور على جثة أمكِ وأختكِ بعد مرور أكثر من ثلاثة شهور على الحادث، فبعد أن فشلت فرق البحث في تفتيش الترعة وبعد أن كذبكِ الجميع باعتبارك طفلة فوجئنا ذات صباح بوجود جثة أمك وأختكِ رحمهما الله في نفس الموضع الذي أشرت أنت إليه.

اقترب منها ليضع يده على كتفها ويكمل قائلاً:

– في نفس الموضع الذي وجدتكِ تقفين عنده قبل الغداء.

شهقت (نرجس) بفزع ولكنها لم تجد ما تقوله في حين أكمل هو قائلاً:

– استدعت الشرطة والدكِ للتحقيق في الأمر والتوقف عن اعتباره حادث اختفاء أو هروب كما ادعى الحمقى وإنما باعتباره جريمة قتل، وذلك للعثور على آثار خنق حول عنقيهما ولكن لحسن حظ والدكِ ووجود الكثير من الشهود

الذين أفادوا بوجوده معهم في الحقل ولأن توقيت الحادث كان ظهراً فقد أغلقت الشرطة ملف القضية كله ولكنه كان قد أغلق بالنسبة لكِ قبل هذا بكثير وفتحه مرة أخرى كان سيزيد الأمر سوءاً أكثر مما سيصلحه كما أنكِ كنتِ صغيرة فآثر والدكِ عدم إخبارك بأي من هذا والاكتفاء بما كنتِ تعرفينه قبلاً وهي أن أمكِ وأختكِ تم دفنهما وظللتِ أنتِ تأتين لزيارتهما كل فترة حتى انقطعتي عن نزول القرية وظننا جميعاً بأن الأمر انتهى خصوصاً وأنكِ انتظمت في دراستك وبالنسبة لأبيك فـ..

قاطعته هي هذه المرة وهي تصرخ بمرارة قائلة:

– فقد ظل يعاني وحده وهو يخفي الأمر عني ظاناً منه بأني نسيته في حين أنني لم أستطع نسيانه أبداً.

قالتها وأخذت تبكي بعنف في حين اقترب منها عم (محمد) وهو يربت عليها قائلاً:

– لقد فعلنا ما ظنناه لمصلحتكِ بنيتي، ماذا كنتِ

لتستفيدي من معرفة أن أمكِ ماتت غرقاً أو تم قتلها، أعني أنكِ كنتِ صغيرة وقاطعته من وسط عباراتها لتهتف بألم:

– كان عليه أن يخبرني، لم يكن من حقه إخفاء الأمر عني هكذا إنها أمي و..

قاطعها بهدوء:

– لقد فعل ما رآه الصالح لكِ يا نرجس، فعله خوفاً من أن تفعلي ما كنتِ تهمين بفعله الآن.

سألته بغضب:

– وما هذا الذي كنت أهم بفعله الآن؟

نظر إلى ملابسها المتسخة ولم ينطق بشئ إلا أنها استوعبت ما يعنيه فهتفت تقول:

– كلا عماه أنا لم أكن أحاول أن..

قاطعها وهو يعود معها إلى زوجته التي انتهت من

إعداد الشاي ليقول بحنان:

– ليس مهماً ما كنتِ تحاولين القيام به ولكن ما يهم حقاً ألا تعاوديه مرة أخرى.

انتهت من تناول الشاي وشكرتهما على وقتهما وعادت إلى منزلها لترتمي على فراشها وتريح جسدها المكدود وتسقط في نوم عميق

* * *

اتخذت قراري بإنهاء الكوابيس التي تراودني وذلك عبر الحل الوحيد الذي ارتأيته مناسباً وهو الذهاب إليها بدلاً من أن تأتيني هي، ألا ينادي نابليون بونابرت القائد الفرنسي الشهير بأن الهجوم خير وسيلة للدفاع؟ حسناً فلنجرب هذا عملياً الآن.

أخذت نفساً عميقاً ونظرت إلى انعكاس صورتي على سطح المياة وأغمضت عينيى و.. قفزت

كان ارتطاماً عنيفاً وكانت المياة شديدة البرودة إلا أن كل هذا لم يهمني كل ما كان يهمني هو مواجهتها هي، تركت جسدي يسترخي ويعتاد برودة المياة وحينما سكن كل شئ بدأت أنا في مناداتها وأعلنت أنني لا أخشاها ولن أخشاها بعد الآن، ناديتها وتحديتها أن تظهر نفسها ولما لم تأتِ ابتسمت أنا بظفر وأخذت أتحرك وأنا أنتوي الخروج وحينها وجدت نفسي مقيدة وظهرت هي تجذبني معها للأسفل، أخذت أصرخ وأطلب المساعدة إلا أنه لم يأتِ أحداً لمساعدتي، بدأت أشعر بالاختناق وحينها رأيتها.. رأيتها ولكن هذه المرة لم تكن تستند إلى الشجرة كعادتها وإنما رأيتها تقوم وتتجه نحوي وتنظر إلى فتسمرت أنا في مكاني تم سحبي مرة أخرى إلى الأسفل وشربت المزيد من المياة إلا أنني أردت رؤيتها مرة أخرى فقمت بسحب نفسي إلى الأعلى وهناك رأيتها تنظر نحوي وهي تمد يدها هامسة بشئ لم تلتقطه أذناي و.. انتهى كل شئ.

* * *

كان القمر بدراً تلك الليلة وأضفى ضوءاً جميلاً زاد من روعة المشهد ورقته، أخذت نفساً عميقاً ونظرت إلى انعكاس صورتي على سطح المياة وأغمضت عينيى و.. قفزت

كان ارتطاماً عنيفاً وكانت المياة شديدة البرودة إلا أن كل هذا لم يهمني كل ما كان يهمني هو مواجهتها هي، تركت جسدي يسترخي ويعتاد برودة المياة وحينما سكن كل شئ بدأت أنا في مناداتها وأعلنت أنني لا أخشاها ولن أخشاها بعد الآن، ناديتها وتحديتها أن تظهر نفسها ولما لم تأتِ ابتسمت أنا بظفر وأخذت أتحرك وأنا أنتوي الخروج وحينها وجدت نفسي مقيدة وظهرت هي تجذبني معها نحو الأسفل، شهقت بقوة وبلعت الكثير من المياة التي أعمت عيني وأخذت أشعر بالاختناق وبحاجتي إلى الأكسجين و..

– حرري نفسكِ يا (نرجس).

اخترقت الصرخات أذنيها، كانت تشعر بأنها مألوفة وحاولت النظر إلى صاحبها الذي عاود صراخه مرة أخرى

واختلط صوته ببعض الأصوات المحيطة في حين عادت هي إلى الأسفل مرة أخرى و..

– هاهي هناك.

سمعت تلك الجملة وتلاها صوت ارتطام جسد بالمياة الباردة في حين عادت الجملة مرة أخرى وشعرت بيد تمتد نحوها تجذبها نحو الأعلى وتعاود هتافها:

– هيا حرري نفسكِ، تستطيعين فعلها.

حررت يدها لتقبض على اليد الممتدة نحوها وتصعد معها نحو الأعلى لتأخذ نفساً عميقاً تملأ به رئتيها في حين أخذت تتلفت بجانبها بحثاً عن اليد التي أنقذتها و..

– نرجس إنني أركِ عزيزتي لا تخافي أنا قادم إليك.

كان صوت أخر شخص توقعت رؤيته في تلك اللحظة، هتفت باسمه بدهشة وزاغ بصرها في حين اقترب هو يمسك بها قائلاً بجزع:

– لا عليكِ أنتِ بخير الآن.

أعادت فتح عينيها بصعوبة:

– لقد تحررت أماه.. لقد تحررت.

* * *

كان حفلاً هادئاً حضره بعض أصدقاء وزملاء العمل ولم تنس دعوة عم محمد والخالة فتحية بالطبع، كانت نرجس كالملكة المتوجة وكان الجميع سعداء بهذه النهاية السعيدة وكان أكثرهم سعادة محمود الذي مال على أذن زوجته ليهمس بخبث قائلاً:

– فلتتركيني قليلاً يا (نرجس) أنا لن أهرب.

وكزته نرجس برفق وهي تبتسم للضيوف وجذبته نحو الشرفة لتردف بغضب مصطنع قائلة:

– هكذا، فلتتذكر أنك من ظللت تجري ورائي.

قال بمرح:

– بلى أعلم هذا، يبدوا أنني كنت أحمقاً كبيراً.

عقدت حاجبيها هذه المرة بغضب حقيقي فاستطرد هو بحنان:

– كنت أحمقاً لأنني انتظرت طوال هذه الفترة حبيبتي.

ابتسمت بخجل في حين اقترب هو منها مكملاً:

– كنت قد اتصلت أكثر من مرة وحينما لم تردي علي استبد بي القلق وأتيت لأرى ماذا حدث وسألت عن المنزل وحينما ذهبت وجدت عم (محمد) هناك و..

– وكان ما كان.

توردت وجنتيها بخجل فقال هو بمرح:

– أنتِ مدينة لي بحلة كاملة لأن الأخرى قد ابتلت تماماً ولم أستطع تجفيفها إلى الآن.

ضحكت بشدة وأزاحت خصلات شعرها فظهر عنقها

الجميل وظهرت معه الآثار الحمراء حوله فقطب هو حاجبيه في حين همت هي بالنظرفي نفس الموضع وسؤاله عما حدث، فما كان منه إلا أن جذبها يضمها إليه لتستكين، في حين استمر هو في تقطيبة حاجبيه غير مصدقا لما رآه لتوه ستحدث كارثة إذا ما علمت نرجس بهذا، زفر بضيق فأبعدت هي نفسها بدهشة سائلة إياه بقلق:

– (سامي) ماذا هناك؟!

– متى سيرحل هؤلاء الضيوف المزعجون؟

رسم ابتسامة حانية على شفتيه إلا أن عقله انطلق يفكر فيما رأى وما يعنيه ذلك إلا أنه قرر نسيان الأمر كله وتركه عند هذا الحد غير آبهاً بأي شئ سوي يدها الساكنة التي يحتضنها بحب ووقفا سوياً ينظران إلى نيل مصر الجميل والبدر يضفي عليه لوناً متلألئاً خلاباً وهما يعلنان بذلك تحديهما لأسطورة كادت أن تقضي عليهما معا، أسطورة

صدقها الكثيرين وسمحوا لها بالتغلغـل إلى أعمـاقهم فتحولـت إلى وحش كاسر يلتهم حريتهم ويفتك بها تحت مـسمى زائـف يدعى أم الشعور.

يوليو / 2010

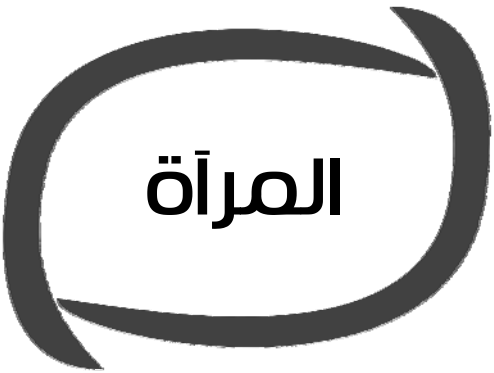
المرآة

(1) بسمة

"حسناً حبيبي يمكنك القدوم الآن لقد انتهيت"

قالتها (بسمة) وهي تمسح حبات العرق التي بدأت في التجمع على وجهها و..

"عذراً عزيزتي فأنا تركت سيارتي في الجهة المقابلة من الشارع هل تستطيعين عبور الطريق وموافاتي هناك؟ المكان ليس بعيداً"

"حسناً حبيبي لا عليك.. أنا قادمة إليك انتظرني"

قالتها وخرجت من المتجر الذي كانت به بعد أن انتهت من شراء حاجياتها.

"يا الهي الجو حار جداً اليوم"

عاودت مسح حبات العرق على جبينها وزفرت بضيق إلا أنها ابتسمت حينما رأت زوجها في الجهة الأخرى واقفٌ يلوح لها فابتسمت له ونسيت الجو والحرارة والعرق.. يا الهي كم تحبه!!

ابتسمت لنفسها لمرور هذه الخاطرة ببالها ووجدت نفسها تسرع من خطواتها دون الانتباه لوجه زوجها والذي بدت عليه أمارات الفزع ولا لصوت العربة التي ارتطمت بها وأحالت الدنيا كلها إلى ظلام حالك لم تلبث أن أفاقت منه على دموع زوجها التي تتساقط على وجهها وأنّاته التي كادت أن تصم أذنيها فابتسمت له بحنان وقالت له بصوت ضعيف:

"أنا بخير حبيبي.. لا تبكي"

التفت لها بلهفة وبدت على وجهه أمارات الدهشة فابتسمت له بوهن قائلة:

"لا تبكي"

اقترب منها وهو غير مصدق لما يسمع وحاول الإمساك بها إلا أنها سارعت بالابتعاد و..

"محمود استيقظ بني"

استيقظ (محمود) على هذه العبارة فانتفض جسده انتفاضة كبيرة وأخذ يتلفت حوله كثيراً حتى استقرت عيناه على وجه أمه الفزع وهي تقول

"بسم الله عليك بني... لقد كنت تبكي وأنت نائم"

تنهد (محمود) وأمسك رأسه بألم فسألته أمه

"أهو نفس الحلم؟"

أومأ برأسه دون أن ينطق فاقتربت منه أمه وربتت عليه برفق قائلة بحنان

"حاول أن تنساها يا ولدي فإنك تعذب نفسك و..."

قاطعها بألم

"كيف أنساها أمي؟؟ كيف؟!!"

قالت أمه وهى تمسح على رأسه وتناوله بعض الأقراص

"تستطيع نسيانها إذا ما أردت هذا حقاً"

تناول الأقراص بصمت ومن ثم نظر إليها بلوم قائلاً

"ولم أفعل يا أمي؟؟"

نظرت إليه أمه بدهشة وقالت

"أتريد أن تعيش ما بقى من عمرك مشتتاً بين الأحلام والكوابيس؟؟"

ومن ثم نهضت بغضب قائلة

"كلا.. لن أسمح لك بتدمير نفسك بهذه الطريقة"

اغرورقت عيناها بالدموع وأكملت برجاء

"لقد مر على هذا الحادث وقتاً طويلاً يا ولدي.. لم لا تنساها وتبدأ حياه جديدة مع من تختارها؟؟"

هز(محمود) رأسه بعنف عند هذه النقطة وقال بألم

"كلا أمي.. ليس بهذه السهولة لقد كانت بسمة كل حياتي ولن أنساها أبداً"

همّت أمه بالحديث إلا أنه قاطعها بحزم لا يقبل المناقشة

"يكفى أمي لقد سأمت من الحديث في هذا الأمر.. طوال العام وأنتِ تطلبين مني النسيان"

بتر حديثه ليلتقط أنفاسه المتقطعة وأكمل بوهن قائلاً

"أرجوكِ فلتعطيني المزيد من الوقت"

تطلّع إليها برجاء فما كان منها إلا أن أطرقت بوجهها قائلة

"حسناً بنّى.. سأحاول"

(2) الشقة

لقد كان هذا هو الحال بين (محمود) وأمـه دائمـاً، هـو يتعذب لذكرى موت زوجتـه وأمـه تتعـذب لرؤيتـه علـى تلـك الحالة، لذا فقد كان يهرب منها دوماً إما بالنوم علّـه يراهـا في حلمـه، أو بـالخروج والـذهاب إلى شـقتهما دون إخبـار أمـه بوجهته بالطبع.

أدار المفتاح في الثقب المخصص له ودلف إلى الداخل وهو يتنهد بعمق مستعيداً ذكرياته في تلك الشقة

"أوحشتني كثيراً عزيزتي.."

"اعذري أمي فهي لا تدرك ما كان بيننا.. لا تـدرك أنـه من المستحيل نسيانك، فهي تطالبني كل اليوم بالنسيان والبـدء

من جديد بل والابتسام أيضاً، كيف أبتسم وقد رحلتِ عني وآخذتي معكِ بسمتي وضحكتي..!!"

بدأت عبراته تسيل بصمت فأكمل دون أن يهتم بتجفيفها

"سامحيني عزيزتي فأنا السبب"

قالها ونهض بألم شديد واتجه نحو المرآة التي طالما كانت تجلس عندها تتزين له وحده

وقف أمامها ينظر لصورتها المعلقة فوقها قائلاً

"لم يكن عليكِ أن تعبري الطريق.. لمَ لم تصري على أن آتى أنا إليك ؟"

ازداد نحيبه مرارة وقال

"لم يكن عليكِ أن تطيعيني حبيبتي.. لو لم تطيعيني لكنتِ معي الآن تجلسين معي وتضاحكيني لتنسيني همومي كلها"

نظـر إلى صـورتها مـرةً أخـرى ووجـدها تبتـسم إليـه ابتـسامتها الـتي طالمـا.. لطالمـا أحـس أنهـا تهـدئ مـن روعـه بابتـسامتها تلـك، لطالمـا أحـس أنهـا تراقبـه وتهـتم بـه مـن خلالها.. لهذا كان يأتي دوماً إليها يتحدث معها ويبتـسم لهـا وحدها.

(3) الصدمة

"أمي لقد عدت"

أتاه صوت أمه قائلة

"حمداً لله على سلامتك بنى .. تعال لترحب بالضيوف"

عقد حاجبيه بضيق فقد كان يريد الدخول لحجرته مباشرة كي ينام علّه يكمل اللقاء مع حبيبته، أخذ نفساً عميقاً ودخل إلى حيث تجلس أمه وألقى التحية فابتسمت أمه مشيرة إلى الفتاة الجالسة أمامها قائلة

"ألن تلقي التحية على ضيفتنا؟"

قال (محمود) بوجه جامد دونما تعابير ودون حتى أن يلقى نظره واحده على الفتاة الجالسة أمامه

"مرحباً سيدتي"

نهضت الفتاه الجالسة وتحدثت إليه بصوت طالما اشتاق إلى سماعه وقالت وهى تمد يدها إليه بجرأة

"اسمي (بسمة) .. بسمة محمد"

ألقت قنبلتها وانتظرت لترى ردة فعل محمود والذي انتفض جسده انتفاضةً ملحوظة ورفع عينيه إليها وهو يأمل أن يراها.

"(محمود) ألن تسلم على بسمة؟"

قالتها أمه بصوت حاولت قدر الإمكان إخفاء توتره إلا أن محمود لم يبد عليه أنه قد سمع أمه فقد استمر بالتحديق إلى الفتاة الواقفة أمامه والتي تبتسم بتوتر وقد أعادت يدها بعدما أصابها القنوط من مصافحته

"سيد (محمود) أأنت بخير؟"

قالتها الفتاة بتوتر مما دفع بأمه أن تقف وتقترب منه

لتهزه قائلة

"(محمود) أجبني ما بك؟"

انتفض على هزات أمه ومن ثم اعتذر واندفع للخارج غير آبه لقلق أمه ولا لهمهمات الفتاة فجل ما أراده هو الهروب منها ومن صوتها..!!

* * *

"عذراً بنيتي.. فهو ما زال تحت تأثير الصدمة"

قالتها أم (محمود) للفتاة الواقفة أمامها والتي بدا عليها الضيق الشديد إلا أنها سارعت بإخفائه قائلة بابتسامة مصطنعة

"لا عليكِ أمي.. لم أشعر بالضيق إطلاقاً"

قالتها واستأذنت بالانصراف واعدة إياها بالعودة.

(4) الحلم

"أنا هنا حبيبي"

قالتها (بسمة) وهي تبتسم له بحنان فاقترب منها واحتضنها بحب بين ذراعيه ورفع رأسها كي يقبل جبينها وهمس في أذنها بشوق

"افتقدتكِ كثيراً بسمتي"

استكانت بسمة بين ذراعيه وقالت له بهيام

"وأنت أيضاً حبيبي"

أبعدها عنه بحدة ووجدها تقول بدهشة

"(محمود) ماذا أصابك؟!!"

أشار إليها بسبابته وهو عاجز عن النطق، فقد أخذ

وجهها في التحور إلى هيئة أخرى مغايرة

اقتربت (بسمة) منه وهى تناديه قائلة

"(محمود) لا تهرب مني إنك تؤلمني هكذا"

استمر(محمود) في التراجع إلا أنها أدركته وأمسكت يده بحنان قائلة

"حبيبي لم تهرب؟"

دفع يدها بعيداً وهو يصرخ

"أنتِ لستِ هي"

"لستِ هي"

أفاق من نومه وهو يلهث وأخذ يردد بخفوت

"مستحيل.. أنتِ لست هي"

تسارعت دقات قلبه ووجد نفسه يتصبب عرقاً، ومن ثم قام من تخته وأخذ يزرع الغرفة جيئة وذهاباً محدثاً نفسه

قائلاً:

"إنه كابوس.. مجرد كابوس"

بدأت دقات قلبه في الهدوء تدريجياً فألقى بجسده على تخته وهو يلهث قائلاً

"إنه كابوس يا (محمود) لقد أثرّت عليك رؤية تلك الفتاة التي وجدتها مع أمك اليوم ولن يحدث ذلك ثانية"

وجد يداً تربّت على يديه بحنان وسمع صوتها تقول له

"بل أنا هي"

انتفض جسده انتفاضه كبيرة وأخذ يصرخ

"كلا ..أنتِ لستِ هي.. دعيني إنه كابوس.. كابوس"

"أخذت ترجه بعنف شديد قائله بحده

"بل أنا هي أيها الأحمق فلتستيقظ من أوهامك "

"استيقظ يا (محمود) استيقظ"

انـتفض جـسده للمـرة الأخـيرة وهـو يـرى أمـه ترجـه بعنف وتصرخ فيه قائلة

"استيقظ..إنه كابوس.. استيقظ"

استمرت أمه في هزه حتى بعد أن استيقظ وهي تقول من وسط دموعها

"استيقظ بالله عليك بنى.. لا تفعل هـذا بـي، ستـصيبني بالجنون"

أمسك يدها التي تهزه وحاول أن يتحـدث إلاّ أن الكـلام لم يتجاوز شفتيه فاكتفى بأن تنهد تنهيدة قوية في حين ضـمته أمه إليها وكأنما تقيه من الكابوس الذي كاد أن يميتـه ويزهـق روحه، استكان هو بـين يـديها يـستمع إلى آيـات القـرآن الـتي تتلوها على مسامعه حتى استراح وهدأت أنفاسه

(5) المخطّط

"مرحباً أستاذ (محمود)"

أودعت صوتها كميه كبيرة من الرقة والدلال لتنطق بجملتها السابقة وهي تبتسم ابتسامه خجلى مطرقةً بوجهها إلى الأرض دون النظر مباشرة إلى وجهه، مما دعاه أن ينظر إليها بهيام ويقول بشوق

"أنا بخير"

ثم اقترب منها في محاولة منه لرؤية عينيها قائلاً

"كيف حالكِ أنت بس.."

بتر عبارته فجأة قبل أن يخونه لسانه ويتفوه بما يندم عليه، ومن ثمّ قال بسرعة منهياً الحوار وهو يتجاوزها مندفعاً

على الدرج ليهرب منها ومن صوتها ومن المكان كله

"بخير.. شكراً لكِ"

قالها واندفع بسرعة لم تمكنه من رؤية الفتاة التي رفعت رأسها وابتسمت لنفسها ابتسامة واسعة دلالة على الانتصار

"حسناً يا (محمود) .. إنها البداية فحسب"

ومن ثم التفتت إلى موضع اندفاعه مكمله بشرود

"وأنا لم ولن أيأس أبداً"

* * *

"كيف اندفعت بهذه الطريقة السخيفة؟ أنسيت نفسك يا (محمود)؟!! لم يكن من حقك أبداً أن تفعل هذا"

لم تكن هذه سوى كلمات (محمود) التي يعاتب بها نفسه للمرة الألف وهو يجلس أمام المرآة ومن ثم يرفع عينيه باعتذار صادق قائلاً

"اعذريني بسمتي.. فأنا لم أقصد أبدا "

ومن ثم أطرق بوجهه مـرة أخـرى وكأنمـا يوشـك علـى البكاء قائلاً

"اغفري لي ضعفي.. فهي تشبهكِ كثيراً و.."

وأخذ يتطلع إلى الصورة بشوق مكملاً

"وكذلك صوتها يبدو كصوتكِ"

نهض من مكانه واتجـه نحـو الخـارج ضـاحكاً بمـرارة قائلاً

"يبدو أن أمي محقه، سأجن قريباً"

(6) ذكريات

مرّت أيام كثيرة، مجرد أيام تقطع من السنة وتمضى وينساها الجميع إلاّ أنها ليست كذلك بالنسبةِ له

وبالرغم من عودته إلى عمله ومحاولته الانغماس فيه علّه ينسيه بعضاً من همومه،إلاّ أنه فشل في نسيانها ونسيان أنه كان سبباً في موتها ورحيلها عنه..

هكذا كان حاله منذ ذهبت عنه وتركته وحيداً، رحلت وأخذت معها كل شئ، لم تترك له سوى بعضاً من ملابسها وصورتها.. ومرآتها التي طالما كانت تجلس أمامها

"يا الهي أنتِ تمضين وقتكِ كله أمام تلك المرآة.. لقد بدأت أغار منها"

أكمل وهو يغمز بعينيه قائلاً

"عزيزتي أنتِ لن تصبحين أكثر جمالاً بمكوثكِ أمامها كل هذا الوقت"

يذكر جيداً كيف التفتت نحوه وهي تصطنع الغضب قائلة

"حذار يا (محمود) أتقصد أننى لست جميلة أم ماذا؟"

ضحك بقوة وهو يقترب منها ويجذبها إليه برفق كي تبتعد عن المرآة وتقترب منه ومن ثمّ همس في أذنها قائلاً

"بل أنتِ جميلة الجميلات..أو تدرين من تكوني أيضاً؟"

تطلّعت إليه بتساؤل فضمّها إليه بحب قائلاً

"أنتِ بسمة حياتي"

لم يتمالك نفسه وقد اغرورقت عينيه بدموع الألم التي

حـاول ردعهـا حتـى يـصل إلى حجرتـه فقـد هاجمتـه تلـك الذكريات بعد عودته من عندها.. فقد اشتاق إليها كـثيراً حتـى أنها لم تعد تأتيه في حلمه كالسابق

أخذ يصعد الدرج وهو مطرق الرأس ومنهك القوى حتى وصل إلى شقته الـتي فـتح بابهـا بـصمت ودلفهـا بهـدوء تاركـاً وراءه فتاة تكاد تكون تشتعل غضباً..

فتاة أقسمت أن تجعله يدفع ثمن تجاهله إياها غالياً..

فتـاة طعنـت أنوثتهـا في مقتـل حينمـا تركهـا وتـزوج الأخرى..

فتاه تكرهه جداً.. لأنها تحبه كثيراً..!!

* * *

"(محمود) ..هل عدت يا بنى؟"

قالتها أمه وهي تتجه نحوه بشوق فالتفت إليها محمود مردفاً

"بلى أمي"

قالها واتجه نحو غرفته فقد كان حقاً منهكاً ويحتاج للراحة و..

"هل رأيت (بسمة)؟"

توقف عن الحركة بل وعن الشعور بالتعب والإرهاق والتفت إلى أمه وكأنه لم يستوعب ما قالته.."أعنى هل صادفتها أثناء صعودك الآن؟"

رفع محمود حاجبيه وقد فهم الأمر أخيراً، إن أمه تتحدث عن الفتاة شبيهة بسمة.. ولكنها أبداً ليست بسمة..إنها ليست هي!!

أجاب ببرود وهو يعاود الاتجاه إلى غرفته

"كلا "

قالها وترك أمه نهباً للقلق، فمن الواضح أن المخطّط يجب تعديله والانتقال إلى الخطوة التالية فوراً وبدون أي تأجيل..

(7) الحادث

"أخبريني أمي أمن الضروري أن آتى معكِ؟"

قالها (محمود) متأففاً وهو يتذمر من إصرار أمه على اصطحابه معها لزيارة أقارب لهما، فهو لم يكن يريد الخروج أبداً، فهو لم يعتد الخروج بعد، لو كان الأمر بيديه لما ذهب إلى عمله أيضاً

"محمود ماذا تقول؟!! أتريد منى الذهاب وحدي وولدي حي على قيد الحياة؟"

قالتها أمه باستنكار شديد كي تذهب عنه أدنى فكره في التقاعس عن الخروج معها، ولقد نجحت في هذا إلى حد كبير فلم يزد سوى أن تنهد بضيق وقد استسلم للأمر..

* * *

تأبّطت أمه ذراعه بسعادة حقيقية

"كم أنا سعيدة بنى.. فقد كانت آخر مره خرجنا فيها معاً منذ فتره طويلة"

كان (محمود) شارد النظرات فقامت أمه بهزه قليلاً حتى التفت إليها قائلاً

"أجل أجل.. بالطبع أمي"

التفت إليها متسائلاً باهتمام

"هل سنتأخر هناك أماه؟"

"لا تقلق س..."

بترت عبارتها فجأة وقد طغى على وجهها أمارات الفزع والرعب وفقدت القدرة على النطق فاكتفت بأن أشارت بيدها للجهة المقابلة من الطريق

التفت (محمود) إلى حيث تشير أمه بقلق وما لبث أن شعر برعب فائق حتى أنه تسمرّ في مكانه غير قادر على المضي

قدماً إلا أن أمه هزته بعنف قائلة بخوف

"أسرع يا (محمود) ..حاول مساعدتها بنى "

أفاق على هزّات أمـه وانطلـق يـركض كـالبرق غـير آبـه بنفير العربة الذي كاد أن يصم أذنيـه، كـل مـا كـان يـراه هـو بسمة التي تعبر الطريق وهى منشغلة في التحدث إلى شخص ما

"كلاّ.. كلاّ"

صرخ (محمـود) بفـزع وهـو يجـذب بـسمة ليقيهـا مـن الصدمة ويحتويها بيديه كي يتلقى عن جسدها الرقيق الصدمة

فليمت هو ولكن ليس هي.. ليس هي

فليفارق هو الحياة طواعية ليراها تحيا

"أأنتِ بخير حبيبتي؟"

قالها بلهفة كبيرة وهو يتحسس وجهها بحنان وهـو لا يزال محتضناً إيّاها بقوّة

لم ينتظر ردها فأكمل بخوف وهو مازال يتحسسها

"لا تذهبي عني مرة أخرى حبيبتي.. لقد أتيت الآن.. لا تفعليها أرجوكِ"

ابتسمت له بتوتر قائلة

"لا عليك.. أنا أنا ب.. بخير"

بدا وكأنه لم يسمعها فقد استمر مردداً

"لا تذهبي بسمتي.. لا تفعليها أرجوك "

اقتربت منه أمه في تلك اللحظة وهى تهزه قائلة

"إنها بخير بنى.. لا تقلق"

بدا (محمود) وكأنه يعيش كابوساً ما لا يشعر بشئ ولا بأحد سوى(بسمة) القابعة بين يديه

"أجل..أنا بخير حبيبي لا تقلق"

نظر إليها فجأة ليجدها تبتسم إليه الابتسامة التي طالما

اشتاق لها واقترب منها رغبة منه في التأكد من أنها هي و..

و أحس فجأة بتصاعد الضباب وأخذت الصورة تتلاشى وبسمة تبعد عنه رويداً رويداً وهو يناديها بضعف

"لا تذهبي حبيبتي"

كانت تزداد ابتعاداً وصوته هو يزداد وهناً إلاّ أنه أكمل بضعف قائلاً

"بسمتي.. لا تتركيني"

(8) لا تذهبي

"اهدئي أمي إنه بخير كما قال الطبيب فلا داعي لكل هذا"

لم تتوقف السيدة عن البكاء وإنما قالت من بين عبراتها بانهيار

"لقد قال الطبيب بأن العربة لم تصبه بسوء وإنما أصيب ابني بانهيار عصبي حاد وهو يظن أن زوجته هي من كانت تعبر الطريق"

ازدادت شهقاتها والتفتت إلى الفتاة التي لم تكن سوى عبير مكملة

"وهو يظن أنها على وشك الموت والرحيل عنه للمرة

الثانية، لم يستطع التحمل..يا الهي لقد كدت أن أقتل ابني بيدي"

قالت جملتها وعلا نحيبها حتى أن الفتاة قامت بحدة واتجهت نحوها قائله بقسوة

"كفى نحيباً"

التفتت إليها أم محمود بدهشة بالغة دون أن تكف عبراتها عن الانهمار إلاّ أن الفتاة أكملت قائلة

"لقد فعلت ما يجب عليكِ فعله، أنتِ أمه وتفكرين لمصلحته أويعجبكِ حاله وهو يذبل يوماً بعد يوم ويزداد انطواءً ووحدة؟"

انتبهت لنفسها عندما أدركت أنها تتحدث بطريقة غير لائقة وأنها بهذا تكشف النقاب عن وجهها الحقيقي، فاقتربت من أم محمود ورسمت ابتسامة مصطنعة على شفتيها قائله:

"لقد فعلتِ الصواب أمي، فعلتِ ماكان يجب عليك فعله من عام كامل"

عاودت أم (محمود) بكائها وقالت بحزن مرير

"ولكنكِ رأيتِ بنفسكِ ما حدث له، لقد انهار ابني تماماً.. انهار"

عاودها نحيبها إثر جملتها حتى أن عبير اقتربت منها واحتضنت رأسها قائلة بحنان

"و سأساعده أنا على العودة مرة أخرى"

همست محدثة نفسها

"تبّاً لكِ يا (بسمة) ..أنتِ سبب شقائي وأنتِ حيّة، وحتى بعد مماتكِ، لقد كدت أموت اليوم بسببكِ، لولا اتفاقنا مع سائق السيارة وتدخل زوجكِ في الوقت المناسب وحينها لم أكن لأغفر لكِ أبداً"

* * *

"لا تذهبي أرجوكِ"

"أنا معك حبيبي"

"أحقاً ما تقولين؟"

اقتربت منه (بسمة) لتطبع قبلة حانية على وجهه قائلة

"بلى حبيبي أنا هنا"

حاول النهوض إلاّ أن جسده بدا ثقيلاً فتنهد بحزن قائلاً

"سامحيني حبيبتي لقد حاولت إنقاذكِ ولكنني فشلت"

أطرق برأسه وهو يردف بألم

"لقد تركتكِ ترحلين عنّى ثانية"

رفع عينيه إليها بشوق مكملاً

"أتغفرين لي؟"

أجابته مبتسمة بحنان

"دائماً حبيبي"

سمع أصواتاً متداخلة في تلك اللحظة ورأى بسمة تلتفت عنه وتهم بالذهاب و..

"إلى أين حبيبتي؟ لقد وعدتني"

قالت له بحزن وقد بدأ صوتها يتلاشى تدريجياً

"سأحاول أن أعطيها فرصة يا (محمود) علّها تستطيع مساعدتك أكثر منى"

هتف برجاء قائلاً

"لا ترحلي.. فأنا لا أريد سواكِ"

ابتسمت له بحزن وقالت

"فرصة واحدة حبيبي.. وسأكون بجوارك دوماً"

"بسمة.. انتظري"

تلاشت (بسمة) من أمامه فجأة وتعالت الأصوات ليميـز من بينها صوت أمه

"حمداً لله على سلامتك بنى .. حمداً لله"

ميّز أيضاً صوت بكائها وحاول فتح عينيـه إلاّ أنـه بـدا مجهوداً شاقاً فوجد نفسه يهتف

"(بسمة) .. تعالى إلّى.."

"أنا هنا"

فتح عينيه فجأة ليراها أمامه بابتسامتها الحانية

هتف بوهن

"أنتِ هنا"

أجابته (عبير) وهى تمسك يده بحنان

"أجل حبيبي.. أنا هنا"

ابتسم بوهن ومن ثمّ أغلق عينيـه وسـقط في ظـلام دامـس مره أخرى..

(9) الصراع

بدأت القصة منذ خمس سنوات..خمس سنوات وهى تحبه في صمت.. ليست تذكر متى أحبته بالفعل وإنما تذكر جيداً أنها بدأت تراقبه منذ وقعت عيناها عليه وكأنما أذهب بعقلها واحتله تماماً...لقد رفضت جميع من تقدموا إليها طمعاً في أن يفعل هو ما انتظرته منه طويلاً.. لقد كانت تشعر في أحيان كثيرة بأنه يبادلها شعورها حتى كان اليوم الشؤم والتي رأت فيه الزينة تعلو بيته وحينما سألت كانت أكبر صدمة في حياتها حين علمت أنه أحب أخرى واختارها بدلاً منها!!!

وحتى بعد أن ارتبط هو.. استمرت هي في رفض كل من تقدموا إليها وكأنما بهذا تعاقبهم جميعاً أو ربما تعاقب نفسها

على تعلقها بأمل واه..!

انقلبت سحنتها حين تذكرت حبيبها وهو يحتضن يد زوجته الجديدة وهما يضحكان معاً في مرح

راقبت ضحكاتهما وهمساتهما وهى قابعة في بيتها مهمومة مهزومة ومنكسرة!!

لقد كانت أسوأ لحظات عمرها والتي ترى فيها محمود سعيداً مع أخرى..!!

"تباً لكِ يا (بسمة) .. إنه لي أنا الآن.. لقد كنتِ معه وأضعته من يديكِ والآن حان الوقت لآخذ ما كان حقاً لي من البداية.."

صحيح أنه يعتقدني تلك البسمة الحمقاء بل وينادينى باسمها أيضاً ولكن كل هذا لا يهم فالمهم أنه سيكون لي أخيراً.

لي وحدي..

* * *

"أمي ألم تري (بسمة) اليوم؟"

قالها (محمود) وهو يحاول مداراة لهفته التي لم تغب عن أمه التي تظاهرت بعدم الفهم وقالت بخبث

"هه.. بسمة من؟"

قال (محمود) بغضب

"أنتِ تعلمين عمن أتحدث يا أمي فلا داعي للمراوغة أرجوكِ"

اقترب منه أمه وطبعت على وجهه قبلة حانية قائلة

"ألم يحن الوقت بعد؟"

سألها بحيرة حقيقية

"ما قصدكِ أمّاه؟!!"

أكملت أمه وهى تربّت على كتفه وتنظر لعينيه مباشرة

"بالزواج منها بنّى"

اتسّعت عينيه استنكاراً وابتعد عن أمه هاتفاً

"ماذا؟؟ الزواج؟! !"

قالت أمه بدهشة

"أجل بنّى.. ولم لا، ألا ترى نفسك والقلق ينهشك بحثاً عنها وعن أخبارها؟؟"

قالتها وغمزت بعينيها قائلة

"وبا لمناسبة فهي أيضاً تذوب عشقاً بك"

وجد نفسه يهتف بلهفة

"حقاً!"

استنكر لهفته تلك ومن ثمّ سأل أمه كي لا يترك لها فرصة التعليق على سؤاله الملهوف

"أقصد.. وكيف عرفتي؟"

ابتسمت أمه بحنان وقالت

"وحده الأعمى من لا يرى حبها لك بنّى.. ألا تذكر كيف كانت قلقة عليك أثناء تعبك؟ لقد كانت تأتي كل يوم للاطمئنان عليك وقضاء أغلب وقتها معك"

ابتسم (محمود) بالرغم عنه وشرد ببصره قائلاً

"بلى أمي ولكن.."

قاطعته أمه بحزم

"لا يوجد لكن.. قد فعلت الفتاة من أجلك ما لم تكن مضطرة له سوى لأنها تحبك ولكن سمعتها تهمها أيضاً ماذا تريد من الناس أن يقولوا عنها وهم يرونها تأتى عندنا يومياً وأنت شاب و.."

قاطعها بألم

"يكفى أمي أرجوكِ"

اقتربت منه أمه ومسحت على رأسه بحنان قائله

"لا تعذب نفسك وتعذبها معك يا (محمود) فهي تحبك

كثيراً بنى"

* * *

"أوحشتني حبيبي"

أحقاً ما يسمع..!!

أهذا صوتها الذي طالما اشتاق إليه ورغب في سماعه..!!

ولكنه يبدو مختلفاً بعض الشئ

ولكن لا يهم فهي هنا الآن وهذا كل ما يهم

بدا عليها الحزن الشديد وهى تقول مطرقة رأسها

"لم لم تعد تسأل عنى وعن أحوالي"

قالتها ورفعت رأسها ليرى عينيها والتي بدت كبحر متلاطم الأمواج من الدموع التي تجمّعت بهما وأكملت قائلة

"أنسيتني؟ لقد.."

قاطعها بأن جذبها إليه واحتضنها بين يديه وأخذ

يمسح على شعرها دونما كلام..

لطالما كان يكره رؤيتها تبكى..دموعها تؤثر به كثيراً

تجعله يتمنى الموت ألف مره على أن يراها أو يكون السبب فيها و..

"لا تبكى حبيبتي..فأنا لم ولن أنساكِ ما حييت"

سمع شهقات بكائها وأحس بدموعها تحرق صدره

"لم تبكين حبيبتي؟ أنا هنا الآن لا تبكى أرجوكِ"

لم يتوقف بكاؤها بل ازداد مرارة وازدادت هي تشبثاً به وكأنما ترغب بالاختباء بين ضلوعه، حاول رفع رأسها إلا أنها ازدادت تمسكاً به وقالت بألم من وسط دموعها

"لا تتركني وحدي يا (محمود) .. إنه أمر صعب.. صعب جداً"

رفعت رأسها في تلك اللحظة لتردف برجاء يذيب

القلوب

"لا تتجاهلني رجاءً"

نظر إليها بدهشة وقال بحيرة امتزجت بـا لكـثير مـن الألم

"ماذا تقولين؟ أنا أتجاهلك ؟!! وكيف هذا حبيـبتي!! أنسيتِ من تكونين؟"

قال وهو يهمس في أذنها بحب

"أنتِ بسمتي"

"أنا لا أريد رؤيتك حزيناً أو حائرا... ولا تقلق حبـيبي فسأكون دوماً معك"

"انتظري"

قالهـا بلوعـة وهـو يمـد يـده إليهـا وقـد اختفـت وسـط الضباب اللعين الذي لا يلبث في الظهور دوماً ولا يدرى له سبباً

"محمود..إنه هاتفك بنّى"

انتفض ليجد نفسه على فراشه ورنين هاتفه لا يكف عن إزعاجه وكاد أن يتجاهله كلّياً لولا أن رأى اسم المتصل الذي يضئ الشاشة و..

"بسمة؟؟ أهذه أنتِ؟"

"جيد أنك مازلت تذكر صوتي"

قال (محمود) بارتباك

"بلى أنا.."

قاطعته بمرارة قائلة

"محمود.. لا تتركني أرجوك.."

"لا تتجاهلني أرجوك.. فهذا يؤلمني"

قالتها وسارعت بغلق الهاتف وبترك محمود في حيرة تكاد تذهب عقله

أكانت تلك في حلمي تحاول إخباري! ! !

أم كانت تلك بسمة تطلب منى البعد عنها وعدم المضي في الأمر

استمر في دوامته طويلاً حتى كاد أن يجن فعلاً ولكن مهلاً..

أكانت بسمة تحاول إخباري بأنها مباركة للزواج!

"اذهب إليها"

هتف بعد أن تردد صدى الجملة في عقله قوياً

"بلى.. هذا هو التفسير الوحيد..إنها تحاول إخباري بموافقتها"

قالها واستراح ذهنه لهذا التفسير

ولأول مرة منذ فتره طويلة جدا ارتسمت ابتسامة واسعة على شفتيه وهمس قائلاً

"حسناً بسمتي.. لقد فهمت"

(10) الزفاف

كان حفلاً هادئاً لم يحضره سوى أهل العروس وأنا وأمي فقط، لقد كانت هذه رغبتي ولكن (بسمة) ..أقصد (عبير)

بلى لقد علمت بالفعل أن اسمها الحقيقي ليس (بسمة) ولكن أبواها لا ينادونها إلا به وكذلك أمي..و هي بنفسها طلبت منى ألا أناديها عبير لأنها ليست معتادة عليه بل وتكرهه أيضاً..!!

المهم أنها

لم تعترض بل وبدت متحمسة للغاية وقالت بأنها مثلي.. تحب الهدوء...،

لقد مضى كل شئ سريعاً وبدون أية عوائق تذكر..إذن لم

لست مرتاحاً..!! أليس هذا ما كنت أريده؟!! لم أجد قلبي منقبضاً هكذا؟!!

لقد أصر على الزواج بشقتهما القديمة، تذكر نفسه وهو يلقى بهذا الشرط متوقعاً ردود الفعل العنيفة إلا أن شيئاً مما توقعه لم يحدث..!! فقد رحّبت هي بالفكرة واستحسنتها كثيراً وكذلك فعل أبواها..، متعللين بصعوبة إيجاد شقه كتلك هذه الأيام، وهكذا تمّ الزواج، وقام بإغلاق الغرفة..غرفتهما والإبقاء عليها..متعللاً باحتفاظه بأدوات قديمة داخلها..!! أيضاً لم تعترض هي على ذلك وكأنما لا يشغلها شئ في الوجود سوى رغباته.

"ما لذي يحدث لي؟! هل جننت أم ماذا؟"

قالها بهمس ومن ثمّ رفع عينيه إلى المرآة التي يجلس أمامها محدثاً صورتها

"أهناك خطبٌ ما؟!!"

قالها والتـزم الـصمت بانتظـار الجـواب ولكـن شـيئاً لم يحدث..فتنهد بعمق وألقى نظرة أخيرة عليها ومـن ثـم همـس قائلاً وهو مطرقاً برأسه

"تصبحين على خير بسمتي"

قالها وسارع بالخروج وبإغلاق الباب خلفه بهـدوء دون أن يصدرعنه صوتاً و..

"ماذا تفعل؟"

(11) الحُلم

"لا أدرى أمي ولكنه يبدو غريباً في الآونة الأخيرة"

قالتها (عبير) بحيرة وقلق مما دفع أم محمود أن تسألها بنفس الحيرة

"ماذا تعنين يا عبير؟"

تنهدت بصوت مسموع عبر أسلاك الهاتف وتابعت قائلة

"لست أدرى ولكنه يبدو شارداً في معظم الوقت وكثيراً ما ينظر إلى وكأنما يراني لأول مرة كما وأنه يختلي بنفسه كثيراً في حجرته المغلقة وحينما أسأله مالذي كان يفعله يتحجج بألف سبب بل وينفي ذهابه هناك.."

أنهـت المكالمـة دون أن تـتغير حالتهـا كـثيراً فالـسيدة العجوز طلبت منها أن تشغله أكثر حتى لا يتـسني لـه الوقـت الكافي للذهاب للغرفة، إلا أنها تدرك أن الحل الوحيد يكمن في أن تكشف بنفسها ما الموجود في تلك الحجرة بالضبط ولن تدخر وسعاً لمعرفته.

* * *

"بسمة.. لقد عدت. أين أنتِ؟"

"أنـت هنـا؟!! ألم تـسمعينني؟ لقـد ظننـت أنـكِ قـد خرجتِ؟!"

قالهـا (محمـود) بعـد دخولـه إلى المطـبخ للبحـث عـن زوجته إلاّ أنه وجدها شاردة أمام الموقـد حيـث أنهـا لم تـسمع ندائه

"عذراً لم أنتبه"

قالتها (عبير) بابتسامة خالية من أي تعبير ممـا دعـى

(محمود) لأن يسأل

"هل أنتِ متعبة؟"

أجابته بضحكة مفتعلة

"كلاّ حبيبي أنا بخير"

ومن ثم توجهت نحوه لتطبع قبلة حانية على وجنته وتقول بعدها باسمة

"ولكنني لم أنه طعام الغداء.. هل لك أن تنام قليلاً ريثما أنتهي؟"

تنهد (محمود) وقال بتعب

"فكرة جيدة لأنني متعب حقاً"

* * *

عزمت (عبير) على معرفة ما تخبئه لها تلك الغرفة ولكنها كانت تعلم أيضاً أن محمود يحتفظ بمفتاحها في مكانٍ ما

ولهذا فقد أخذت تبحث وتبحث حتى أنها نسيت طعام الغداء وحتى أعياها البحث.. ولم تجد أمامها سوى تفسير واحد أزاد من شكوكها ونيران قلبها المريض..محمود يحتفظ بالمفتاح معه.. ألهذه الدرجة يهمه ما بداخل تلك الغرفة ويحتفظ بمفتاحها معه أينما ذهب!!

* * *

"افتقدتكِ كثيراً"

"لقد كنت أنتظركِ لأني أشعر بأن هناك أمرٌ ما.. أليس كذلك؟"

قالها بهمس واقترب بحنان منها مكملاً

"أليس كذلك بسمتي؟"

ضمّها إليه بشوق وحب واستكانت هي بين ذراعيه وقالت بصوت هامس يكاد لا يسمع

"أنا أيضاً افتقدتك كثيراً حبيبي"

سمعها (محمود) رغم خفوتها أو ربما أحسها.. المهم أنه ضمّها إليه بقوه أكبر وهو يهمس بحزن قائلاً

"إذن لمَ تتعمدي تركي..فأنا أتألم دونكِ"

رفعت رأسها ونظرت إليه بعينين اغرورقت فيهما الدموع وقالت بصوت مخنوق

"لقد فعلتها لأجلك حبيبي"

نظر إليها غير مصدق وأراد أن ينطق بشئ ما إلا أن صوته لم يسعفه و..

"انتظرني"

"محمود.. هيا لقد انتهيت تعال الآن"

انتفض جسده على صوتها.. كلاّ هذا لم يكن صوتها إنه صوت (عبير) .. إنها ليست (بسمة) أعاد إليه الاسم أحداث الحلم الذي راوده منذ قليل

"رباه.. ماذا كانت تعنى؟!!"

"ماذا تقول؟"

قاطعه صوت (عبير) المندهش فقال بسرعة مغيراً الموضوع

"لا شئ عزيزتي إنني أتضور جوعاً هلا تناولنا طعامنا الآن؟"

أجابته (عبير) قائلة

"بلى حبيبي.. هيا إلى المائدة"

اتجه إلى الخارج إلا أنه توقف حين أحس بأن عبير لم تتبعه وقال بابتسامه هادئة

"ألن تأتي؟"

ابتسمت بهدوء وقالت

"سأبدل ملابسي وآتى حالاً"

ابتسم لها مرة أخرى والتفت عنها متجهاً للخارج

مكملاً شروده وتاركاً إيّاها تفتش في المكان الوحيد الـذي لم تـره حتى الآن.. ملابسه التي كان يرتديها الآن

اتجهت بسرعة وأدخلـت يـدها في قميـصه إلا أن يـدها عادت خالية الوفاض والتفتت بـسرعة نحـو البنطـال وأدخلـت يدها بلهفة و..

"وجدتك أخيراً"

كانت هادئة على مائدة الطعام تسترق النظر بين الحـين والآخر إلى الغرفة..،،

الليلة ستفعلها وتريح شكوك قلبها إلي الأبد

(12) المواجهة

لم يغمض لها جفن في تلك الليلة

"انظر إلى ما اضطررتني لفعله يا محمود؟"

قالتها بسخط وهى تنظر إليه أثناء نومه وأكملت قائلـه وقد ارتسمت معالم القسوة المجنونة على وجهها

"ولكنني سأفعل ما هو أكثر من السرقة كي تكون لي وحدي، حتى وإن اضطررت إلى القتل في سبيل ذلك"

انتفض جسدها عندما شاهدت جفونه تتحرك وجسده كذلك وقد أطلق أنّةً خافته..

فسارعت بالخروج من الغرفة حتى لا يراها واتجهت من فورها إلى الغرفة

* * *

أدخلت المفتاح في ثقب الباب وأدارتـه بأصـابع مرتعـشة وأخذت تلهث عندما سمعت الصوت الذي يعلن فتح الباب وقـد أذهلها ما رأت

وجعل عقلها يزداد غضباً وجنوناً.

* * *

"إذن فهو أنتِ مرّة أخرى، يا لي من حمقاء.. كان علّى أن أدرك ذلـك منـذ البدايـة.. رغبتـه الـشديدة في الإبقـاء علـى الشقة"

نظرت إلى الصورة مرة أخرى مكملة بغضب محتد

"والإبقـاء علـى تلـك الغرفـة.. والـتي تحـوى صـورتكِ وفراشكِ"

واتجهت نحو دولاب الملابـس لتفتحـه مكملـة بغـضب وهى تشير نحوه

"بل وملابسكِ أيضاً"

"كيف تسمحين لنفسكِ بسرقته منّى على هذا النحو؟"

اقتربت من الصورة وضمت قبضتها لتكمل بغل

"كم مرة عليكِ أن تموتي حتى تتركيني أنعم به؟!!"

"بلى.. لقد تمنيت موتكِ.. تمنيته ألف مـرّه. أوَ تـدرين لماذا؟!!"

"لأنــي كنــت أمــوت حينمــا أراكمــا معــاً تتــضاحكان وتهمسان لأحدكما بحب"

"كنت أحترق وأنا أعلم أنى من يجب أن تكون معه"

"و لو لم تكوني متِ من تلقاء نفسكِ كنـت سـأقتلكِ أنـا بيدّى هاتين"

أكملت وهى تلوّح بيديها إلى الصورة بجنون قائلة

"كفّى عن النظر إلّى وأنتِ تبتسمين تلك الابتسامة الـتي طالما كرهتها"

أكملت بابتسامة ساخرة مقيتة

"ولكن لا أخفى عليكِ أنها كانت السبب في خديعة هذا الأحمق"

قالتها والتفتت مشيرة إلى غرفة نومهما التي ينام بها محمود وأكملت بشرود قائلة

"لقد أدركت أن الطريق الوحيد الذي سيدفعه إلى الشعور بي هو التظاهر بأنني أنتِ"

"و لقد ساعدتني أمه المسكينة في ذلك كثيراً، فقد كنت أذهب إليها يومياً وذلك بعد أن أقنعتها بالمخطط الذي سيرجع إليها ابنها"

ابتسمت بجنون وأكملت مجيبةً لسؤال وهمي

"أجل.. إنه أنا"

"أخبرتكِ سابقاً بأنني كنت سأقتلكِ بيدىّ لو اضطررت لذلك، ولكنكِ مشكورة قد فعلتيها من تلقاء نفسكِ"

"ولكنكِ حين رحلتي أخذتيه معكِ، لم أكن أعلم أنكِ أنانية بهذا الشكل!!!"

اقتربت من الصورة مكملةً

"لقد تركتيه حطام إنسان، لا يرى غيركِ أمامه ولا يسمع سواكِ، أخبريني شيئاً..أهذا هو الحب؟؟!!"

صرخت بحدة وهى تعيد سؤالها مرة ثانية

"أهذا هو الحب أيتها السخيفة؟"

وأجابت هي هذه المرة دون أن تنتظر جواباً قائلة

"كلاّ بالطبع.. لأن من يحب شخصاً لا يتركه ويموت!!! وإنما يأخذه معه!!"

قالتها ونظرت إلى عيني بسمة مباشرة وهمست وكأنما مسّ عقلها درب من الجنون

"أجل.. أنتِ تفهمينني جيداً الآن، إذا لم أنجح في دفع

محمود إلى حبي سأنتحر"

ترقرقت عيناها بالدموع وأكملت وقد امتلأت ملامح وجهها بغضب شيطاني

"و سآخذه معي، لن أتركِ تعذبينني أكثر من هذا!!"

"أتدرين لماذا؟"

"لأنني أنا من يحبه وليس أنتِ"

"أنا التي تخلّت عن شخصيتها ونفسها وتشبهت بأكثر شخصيه تمقتها في حياتها كلها وهذا فقط لتنال نظرة واحدة يخبرني فيها بحبه"

أكملت بحنق وهي تدق على المرآة بغضب

"ولكن حتى هذا قد بخل به علّي، فهو كان يضمني إليه ويبوح لكِ أنتِ بحبه!"

تنهدت بعمق وقالت بهدوء شديد وكأنما لم تكن ثائرة

وفى قمة غضبها منذ لحظات ولكنها أيضاً لم تهتم بهذا وكأنما قد جنّت بالفعل!!

"أنا لم أيأس بعد، وأعد لكِ مفاجأة صغيرة.. آخر مفاجأة، سأحضر محمود أمامكِ ليعترف لي بحبه، وستشاهدين اعترافه هذا بعينيكِ"

ارتسمت على وجهها ابتسامه مقيتة وهى تلتفت إلى دولاب الملابس الذي يحوى ملابس غريمتها ونظرت إلى بسمة مرة أخرى وأطلقت ضحكة عالية قائلة

"وستساعدينني أنتِ على ذلك"

* * *

كان أصعب حلم مر به (محمود) .. لا بل كان كابوساً.. كابوساً مفزعاً وقد كان هذا واضحاً من ارتجافة جسده ورعشة جفونه المضطربة وكأنما يرغب بالاستيقاظ منه إلاّ أنه لا يستطيع..!!

كانت الأصوات عالية ومتداخلة

لقد كان صوت (عبير) .. كان صوتها غريباً ومحتداً وكانت كمن يحدث شخصاً ما ويبدو أن هذا الشخص كان يغضبها كثيراً و...

"إنه لي أنا"

"ألا تفهمين؟!!"

إذن فإنها امرأة..!!

أيعقل أن تكون عبير تتحدث مع امرأة تعتقد أنه على علاقة بها!!!

"لن يميز الفرق"

"أنا لست هي"

قالتها وأخذت تدق على المرآة بعنف وسمع صوت تهشم الزجاج.

وأفاق من نومه ليتجـه نحـو الغرفـة الـتي وجـد بابهـا موصداً وأخذ يدق عليه بعنف منادياً

"بسمة... افتحي الباب"

أجابه الصراخ من داخل الغرفة

"أنا.. لست هي"

أصـابته الجملـة بـصدمة وأعـادت إلى ذهنـه أحـداث الكابوس المفزع وهـز رأسـه بعنـف كـي يمنـع تـدفق الأحـداث وهتف قائلاً

"افتحي الباب.."

أعاد هتافه بحدة وهو يدق على الباب قائلاً بصوت هادر

"عبير.. إيّاكِ والاقتراب من.."

بتر عبارته حين سمع صوت تهشم الزجاج

"ماذا فعلتِ أيتها المجنونة!!"

(13) المرآة

لم يفهم (محمود) ما يحدث حوله، أكان الحلم تحذيراً له بما سيحدث؟ أم أن عقله الباطن يحاول أن يخبره بما على وشك الحدوث! أراد أن يعرف ماذا يحدث خلف الباب الحائل بينه وبين عبير

(عبير) التي انفصلت عن كل من حولها وما حولها واستمرت في حديثها الغريب والذي كان يسمعه (محمود) من طرف واحد فقط حيث لم يكن هناك من يرد عليها، ميز من بين كلماتها الغاضبة

"و ستساعدينني أنت على ذلك"

قالتها والتفتت نحو دولاب الملابس وقد ارتسمت على

شفتيها ابتسامة خبيثة و..

"ما رأيكِ؟"

قالتها (عبير) وهى تنظر إلى نفسها في المرآة بعد أن انتقت رداء من الملابس التي تخص بسمة

"أشبهكِ كثيراً في هذا الفستان"

قالتها بابتسامة وهى تتحسس جسدها وتلتفت عن صورة بسمة متجهة نحو المرآة لتجلس على المقعد المواجه لها لتقول وهى تنظر إلى الصورة عبر المرآة دون أن تلتفت

"لن يميز الفرق"

قالتها وأطلقت ضحكة عالية وأكملت بسخرية قائلة

"أعنى.. أنا الأجمل بالتأكيد.. إلاّ أنه لن يميز الفرق"

انقلبت سحنتها لتمتلئ غضباً وقالت وهى تنظر لانعكاس صورة بسمة في المرآة

"أخبرتكِ أنني لن أتركه لكِ"

أكملت بغضب قائلة

"أنتِ قد تركته ورحلتي.. إذن فأنتِ لا تستحقينه"

اقتربت بوجهها من المرآة وكأنما تحاول أن يصل صوتها واضحاً عبرها ومدت يدها لتدق على المرآة بعنف قائلة

" فلتنفضي عنكِ ابتسامتكِ السخيفة إنه لي الآن"

رفعت رأسها إلى بسمة وهى لا زالت مستمرة في دقاتها العنيفة

"لي وحدي"

"إنه لم يكن أبداً لك "

انتفض جسدها بعنف عند سماعها هذه العبارة إلا أنها أكملت بجنون وكأنما فقدت عقلها بالفعل

"بلى هو كذلك ولا يمكنكِ فعل شئ"

قالتها وأخذت تدق على المرآة بعنف أكبر وفى تلك اللحظة ارتفعت صيحات (محمود) من الخارج يطالبها بالخروج متسائلاً بجزع عن هوية من تحادثها، هتفت (عبير) بغضب

"أنا لست هي.. لست هي"

"أنا عبير... عبير التي أحبتك من كل قلبها ولم تعطها أنت ولو القليل"

قالتها وأعادت دقاتها العنيفة على المرآة و..

سمعت هتاف (محمود) الملتاع وهو يقول

"عبير.. إيّاكِ والاقتراب من المرآ.."

اقتربت بوجهها من المرآة مردفة بغضب

"محمود حبيبي أنا.. أنت لا تفهمين "

"أنتِ من لا تفهمين"

"لقد أعطيتكِ فرصة ولكنكِ أبداً لم تكوني أهلاً لها.. أعطيتكِ إيّاها لأجله.. لأجل محمود وذلك لأن من يحب أحداً لا يأخذه معه حين يموت وإنما يتركه يعيش ويسعد حتى وإن كان مع غيره"

"والآن فلتذهبي أنتِ وحدكِ..إلى الجحيم"

"عبير افتحي الباب"

بتر (محمود) عبارته حين سمع تحطم الزجاج ووجد نفسه يغلق عينيه بقوه وهو يضع يديه على فمه ليمنع صرخته الملتاعة و..

سمع صوت الباب يفتح إلا أنه بقى في مكانه مغمض العينين وكأنما يخاف مما على وشكِ أن يراه

"حبيبي.. إنه أنا، اشتقت إليك كثيراً"

"كلاّ.. إنه حلم وسرعان ما سأستيقظ منه.. مثل كل مرة.. ولكن مهلاً.. أنا أحس بيديها على كتفي ويبدوا

الاحساس حقيقياً هذه المرة"

فتح (محمود) عينيه ببطء وهو يخبر نفسه للمرة المائـة بأنه حلم و..

"ألم أطلب منك أن تنتظرني؟"

قالتها بهدوء وبابتسامتها التي طالما عشقها

"وها قد أتيت حبيبي"

قالتها وألقت بنفسها بين ذراعيه تاركة الدموع تنـساب على خديها وأنفاسها الحارة تلفح صدره وتثير فيه النيران

"لا تبكي حبيبتي"

هدأت شـهقاتها قلـيلاً إلا أنهـا لم تتوقـف عـن البكـاء وأكمل محمود قائلاً

"اشتقت إليكِ كثيراً"

رفع رأسها بحنـان ونظـر إلى عينيهـا فوجـدها ممتلئـة

بالـدموع الـتي تحـول دون رؤيتهمـا فـاقترب منهـا يجففهـا بشفتيه

"لقد عدتِ إلّى.. لقد كنـت تحـاولين إخبـاري بـذلك في حلمي أليس كذلك؟"

ضمها إليه بشوق وهو يقول دون أن ينتظر منها إجابة

"كنت أعلم أنكِ لن تتركيني"

ارتفعت صوت شهقاتها في تلك اللحظة وقالت مـن بـين دموعها

"لم أستطع يا محمود.. لقـد حاولـت ولكـنني لم أسـتطع تركك لها"

"لا تبكى بسمتي.. فأنتِ معي الآن"

ترك لدموعه العنان وهو يحيطها بيديـه بـشوق ولهفـة ووجد نفسه يرفع رأسه إلى الـصورة الموجـودة قبالـة المـرآة وقـد

تغيرت ملامحها من الابتسامة الهادئة التي كانت تعلو وجهها إلى نظرة ألم وتحسر، وعينيها التي كانت في لون زرقة البحر إلى لون أحمر جراء البكاء..!!

أغلق عينيه وأشاح بوجهه عنها وعن المرآة المحطمة والتفت إلى بسمة التي توقف صوت بكاؤها ورفع وجهها إليه لينظر إلى عينيها ويغرق في بحرهما..

لم يسمع محمود صوتاً سوى صوت بسمة ولم ير غيرها

لم يسمع نداءات أمه ولم ير عبراتها المتوسلة

أيضاً لم يلتفت إلى الشاب الذي اقترب من أمه يقتادها بهدوء بعيداً

* * *

"عذراً سيدتي ولكن هذا كل ما يمكنني قوله لكِ الآن.."

ازدادت شهقات أم محمود لتطغى على صوت الطبيب الشاب الذي يحاول تهدئتها والتلطيف عليها من وقع الخبر..

ولكن كيف؟!!

كيف يظن أنه بإمكانه أن يخفف عنها بعد أن أخبرها بأن ابنها الوحيد قد جن!!

ازداد نحيبها عند تلك اللحظة وأخذت تهتف وهي تتشبث به قائلة

"كل ما أردته هو أن أراه سعيداً.. لم أكن أرغب في رؤيته يتعذب ويعيش حياته كلها تهاجمه الكوابيس، لا بد من وجود علاج "

قالتها ورفعت رأسها للطبيب الشباب الذي قال بأسف

"لقد بذلنا بالفعل أقصى جهدنا لعلاج ابنكِ وحاولنا مساعدته على تخطي صدمة حادث موت زوجته، ووافقت أنا على خرق قوانين العلاج واتباع نهج مخالف اعتماداً على تحملكِ أنت كامل المسؤلية وذلك عندما لاحظتي الشبه الواضح بين المريضة عبير محمود وبين بسمة زوجته الراحلة"

لم تتوقف السيدة عن النحيب في حين أكمل هو وكأنما يحدث نفسه

"ولقد كانت مغامرة خطيرة إلا أن كليهما أبدى تحسناً ملحوظاً عندما واجهناهما سوياً وبات أمر شفائهما وشيكاً إلا أنني لست أدري إلى الآن لم حدثت هذه النكسة وتراجعت الحالة النفسية لهما لأسوأ من ذي قبل!"

تنهد بعمق وأردف قائلاً

"عبيرقد عاودتها محاولات الانتحار أكثر من ذي قبل، أما محمود فقد ازداد تمسكه بالماضي حتى أنه بات كالمسجل يمحو نفسه تلقائياً ليعيد ملئه بذكريات زواجه وحادث زوجته ومحاولته إنقاذها والمذهل أنه اخترع كل تلك الأحداث والتي تمكن فيها من إنقاذ زوجته بالفعل و.."

قاطعته أم محمود بلهفة قائلة

"ولكنك قلت بأنه قد تحسن لقد رأيت هذا بنفسك، إذن

يمكننا المحاولة ويمكننا البدء من جديد و.."

قاطعها هو هذه المرة بحزم قائلاً

"كلا من المستحيل إعادة التجربة مرة أخرى"

قالت السيدة بغضب

"ولمَ؟ يمكنني التكفل بكل التكاليف و.."

قاطعها مرة أخرى مردفاً

"سيدتي ليست التكاليف هي ما يشغلني ولكن بالطريقة التي انتهى إليها الأمر لا يمكنني أن أجازف بمعاودة التجربة، كان من الممكن أن يقتلا نفسيهما، فعبير تحاول حماية حبيبها من غريمتها ومحمود يحاول إنقاذ زوجته التي مر على موتها ستة أعوام، كنت على وشك خسارة المريضين"

أخذ نفساً عميقاً وقال بهدوء قال منهياً الحديث

"فلتتركيه كما هو سيدتي"

قالها وألقى نظرة أخيرة على مريضيه المتجاورين في غرفتين منعزلتين ومط شفتيه بأسى متخيلاً ما كان من الممكن أن يحدث إذا ما استمرا في التجاوب للعلاج ومن ثم أزاح ببصره واتجه للخارج مردفاً

"ربما هذا أفضل له"

استمرت السيدة في بكائها الملتاع على ما آل إليه الأمر، وضعت يدها على أذنيها علّها تمنع وصول صوت عبير وصرخاتها الملتاعة من جهة.

وابنها الذي اختار بإرادته أن يعزل نفسه عن كل من حوله ويكتفي بالنظر للصورة الوحيدة التي يراها من خلال المرآة.

مارس \ 2010